مخابرات الحرب العالمية الثانية

كانت الحرب العالمية الثانية أكثر مجابهة من الحرب العالمية الأولى على المستوى العالمى . كما كانت أكثر استخداما للمركبات، والدبابات ، والطائرات ، وإسقاط المظلات ، مما أتاح للجيوش سرعة الحركة . لذا كانت المعلومات المسبقة عن نوايا العدو عنصراً حيوياً . من هنا تتضح أهمية جاسوس مثل «**ريتشارد سورج**» وغيره ممن بدأوا نشاطهم قبل اشتعال فتيل الحرب ، فثبتوا أقدامهم فى المجتمعات التى تجسسوا عليها ، وعقدوا الصداقات مع مصادر المعلومات وأحكموا السواتر التى تخفى أنشطتهم بحيث لا يثيروا حولهم أدنى شبهة .

من بين أهداف «سورج» ـ مثلا ـ الحصول على معلومات مسبقة عن خطة اليابان للهجوم على قاعدة «**بيرل هاربور**» البحرية فى المحيط الهادى . لكن لسوء الحظ فاجأت اليابان أمريكا . ولكنه من ناحية أخرى زود روسيا بسيل من المعلومات السرية الهامة ، من عام ١٩٣٥ حتى يوم القبض عليه فى أكتوبر ١٩٤١م كما نفصله فيما بعد .

دبر الأمريكيون فيما بعد انتقاما بعملية جاسوسية اسمها «**عملية السحر**» ، كان اليابانيون قد ابتدعوا شفرة اطلقوا عليها اسم «**ماكينة التحويل الرمزى الأرجوانية**» . اعتقدوا أنها لا تخطئ أو تتعطل ، واستخدموها خلال الحرب فى إرسال معظم الأوامر البحرية . لكن الخبراء الأمريكيين حلوا رموزها ، وصنعوا طرازا خاصا بهم من الماكينة الأرجوانية . وبذلك استطاعوا التعرف على تحركات البحرية اليابانية مسبقا خلال حرب المحيط الهادى .

«**عملية السحر**» كانت لمحترفى الجاسوسية ، ومع ذلك كان فيها مجال للهواة. عرض خادم السفير البريطانى فى «تركيا» على الألمان أن يتجسس لحسابهم . انتحل اسم «سيسرو» . سرق وصور كل وثيقة سرية جدا مرت بالسفارة . من حسن الحظ أن الألمان اعتقدوا أن الوثائق كانت مدسوسة بواسطة الإنجليز ، ولم يتخذوا أى إجراء بصددها . لما حاول «سيسرو» أن يستخدم المبلغ الهائل الذى تقاضاه

خلال الحرب ، قبضت عليه الشرطة بتهمة التزوير ، إذ اتضح أن الألمان دفعوا له نقداً مزيفاً .

كان للشك الألمانى ما يبرره ، لأن الإنجليز دبروا عمليات خداع كثيرة . وقد قاموا أيضاً بتدريب الجواسيس على العمل مع قوات المقاومة الشعبية فى البلاد التى احتلها النازى ، وزودوهم بأدوات مفيدة ، منها تلسكوب على شكل مبسم السيجارة، وخرائط دقيقة جداً بحيث يمكن طيها وإخفاؤها فى جوف قلم . وفى القبو تحت «**متحف لندن العلمى**» ، عكف فريق كامل من العلماء على إنتاج بطاقات تحقيق شخصية مزيفة ، وتصاريح عمل ، وجوازات سفر ، لكل عميل وكل مهمة .

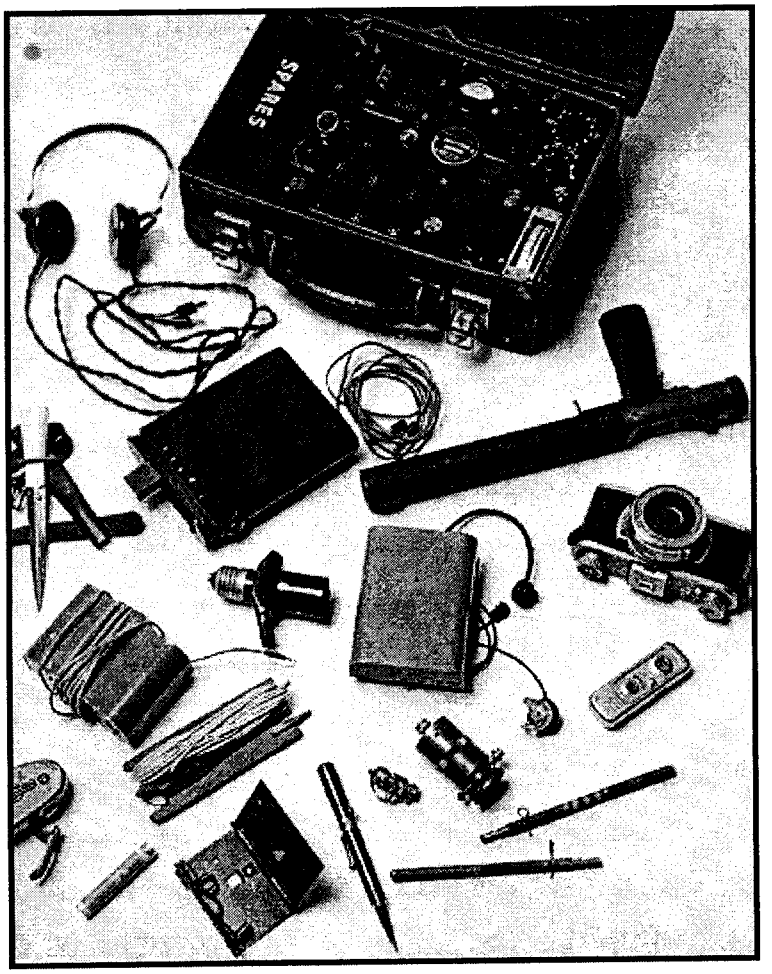

مجموعة أدوات يحملها الجاسوس

اهتمت مخابرات الدول فى الفترة ما بين الحربين الأولى والثانية بالحصول على المعلومات العسكرية والدبلوماسية والصناعية والعلمية بنفس الدرجة . وظلت تتطور من حيث النظم والأساليب والأهداف ، وتتقدم فى خط موازٍ لسرعة التقدم العلمى فى مختلف المجالات ولا زالت ، فتقدم الطيران ـ مثلا ـ أدى إلى استخدام التصوير الجوى فى الكشف عن مواقع المعسكرات والمصانع والمنشآت والمستودعات العسكرية والطرق والكبارى والموانى وغيرها .

وفى الحرب العالمية الثانية دخل التخريب المادى دائرة أهداف المخابرات ، إلى جانب التخريب المعنوى . وانتشر استخدام الخداع ، فكان لكل خطة حقيقية خطة خداعية تغطيها . من ذلك أن «**الجنرال مونتجومرى**» أعد فى الصحراء الغربية معسكرا تشبيهيا متكاملا . بنماذج ثكنات ، ودبابات ، وهياكل منشآت ومرافق ، بقصد تضليل استطلاعات العدو ، قبل هجومه على العلمين عام ١٩٤٢ . كذلك فعل الحلفاء عندما قرروا إبرار قواتهم فى «**نورماندى**» . أوهموا قادة المحور بأن الهجوم سيبدأ من «دوفر» . وحشدوا هناك المدرعات والسيارات لإبعاد نظر الألمان عن نورماندى . ودسوا إشارات لاسلكية مضللة .

وتميزت مخابرات الحرب العالمية الثانية أيضاً بكثرة عدد أعضاء شبكات التجسس. وقد أكثر الحلفاء منها فى أوروبا ، وشمال إفريقيا ، وآسيا . واستخدموا أجهزة لاسلكية أكثر تطوراً ، وتوسعوا فى إدخال العملاء مواقع الاستطلاع بالمظلات والغواصات والزوارق . ومن أشهر شبكات التجسس : **الأوركسترا الأحمر وشبكة ريتشارد سورج ، وغيرهما** .

★ ريتشارد سورج ذو الوجوه الثلاثة

أجمعت كافة المؤلفات التى حللت أعمال شبكة الجاسوسية السوفيتية فى اليابان ، بإدارة «**ريتشارد سورج**» على أهمية الدور الجوهرى الذى لعبته فى انتصار القوات السوفيتية على الجيش الألمانى فى معركة **ستالينجراد** ، والذى كان بداية نهاية المد النازى ، وذلك بفضل المعلومات التى حصل عليها «سورج» وشبكته فى اليابان ، ومكنت السوفييت من نقل حوالى مليونين من جنودهم ، من حدود سيبيريا الشرقية والجنوبية ، إلى ميدان القتال ، فحالوا دون سقوط العاصمة السوفيتية فى أيدى قوات ألمانيا ، ثم هزيمتها فى كل المعارك التالية .

وصف المؤرخون الألمان «سورج» بأنه أقدر الجواسيس وأشدهم خطراً فى جميع العصور . ولقبه آخر بأنه «**الرجل ذو الوجوه الثلاثة**» . وهو ألمانى الجنسية ولد عام ١٨٩٥ من أبوين ألمانيين . قضى صباه وشبابه فى موطنه ، تأثر بهزيمة بلاده فى الحرب العالمية الأولى ، وقاسى كغيره من الظروف الاقتصادية السيئة التى عاشتها بلاده بعد الحرب . وعانى من البطالة والعجز عن مواجهة متطلبات الحياة ، مما زلزل تفكيره ومعتقداته ، ومهد للتحول الرئيسى فى آرائه ونظرته للمجتمع الألمانى ، ودفعه إلى قراءة المؤلفات الشيوعية ، خاصة كتابات «**كارل ماركس**» و «**لينين**» . وآمن بأن الأنظمة الشيوعية وحدها هى القادرة على حل مشاكل المجتمع الألمانى . وانتهى إلى الالتحاق بالحزب الشيوعى الألمانى فى « **هامبورج**» ، يوم حصوله على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية عام ١٩٢٠م

اجتهد «سورج» فى خدمة مبادئ الحزب منذ يوم انضمامه الأول له . عكف على تلقين الطلبة وعمال المناجم وغيرهم مبادئ الشيوعية ، واشترك فى اضطرابات كييل . وحرض على تمرد الأسطول الألمانى ، ولفت انتباه المسئولين عن المخابرات السوفيتية بذكائه الخارق ، وبديهته الحاضرة ، وإرادته القوية ، وتفانيه فى تحقيق أهداف الحزب الشيوعى ، فعرضوا عليه فكرة التعاون مع المخابرات ، ورحب بها ، واجتاز جميع مراحل التدريب بنجاح ، واستطاع خلال خمس سنوات إجادة جميع الوسائل الفنية اللازمة للجاسوسية ، وثلاث لغات أجنبية هى : الروسية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، بالإضافة إلى الألمانية . وتعلم اليابانية والصينية فيما بعد ، واطلع على مؤلفات سياسية واقتصادية كثيرة ، جعلته خبيراً فى الشئون الدولية . وحرص بعد توليه العمل فى اليابان على دراسة كل ما يتعلق بسياستها الخارجية ، وعلاقاتها الثقافية مع الدول الكبرى ، ومراكز القوى الداخلية التى تسيطر على سياستها .

تكونت الشبكة من خمسة جواسيس هم : سورج نفسه ، وأوزاكى ، وفوكولويتش ، وكلاوش ، ومياجى . وبدأت نشاطها عام ١٩٣٤ ، ونجح جميع أفرادها فى اتخاذ سواتر مناسبة :

سورج : حرص على أن يتستر بالعمل الصحفى لتسهيل حركته فى مجالات المعلومات ، كما حرص على الارتباط الشكلى بالنظام النازى عامة ، والسفارة

الألمانية فى طوكيو بصفة خاصة ، فانضم إلى الحزب النازى فى ألمانيا . والتحق بقسم الصحافة التابع له ، وتقرب من الأوساط النازية الرسمية فكان يدعى فى حفلات حضرها هتلر ، فظهر فى نظر أعضاء السفارة الألمانية بطوكيو والمسئولين اليابانيين بمظهر الموثوق به من الحزب النازى ، وعقد صلات عمل وصداقة مع السفير الألمانى فى طوكيو ، وكان يتناول معه طعام الإفطار يومياً ، كما كان صديقا للملحق العسكرى ، وعينه السفير مديرا للاستعلامات بالسفارة فأصحبت أدق أسرارها بين يديه .

أوزاكى : مواطن يابانى من أسرة نبيلة ، يعمل صحفيا ، له خمسة كتب فى العلاقات الصينية اليابانية ، استمد معلومات عظيمة بحكم المناصب الهامة التى شغلها ومنها : المستشار الإدارى لرئيس الوزراء ، ومستشار اللجنة الوزارية للعلاقات الصينية اليابانية ، ورئيس إدارة مباحث سكك حديد منشوريا الجنوبية ، وعضوية لجان أخرى هامة .

فوكولويتش : ضابط سابق فى جيش يوغوسلافيا . اشتغل مراسلا صحفيا لجريدة فرنسية وأخرى يوغوسلافية . كان يتولى أعمال التصوير الفوتوغرافى . ويراسل وكالة الأنباء الفرنسية ، ليتيح له مجالاً أوسع لحرية الحركة وجمع المعلومات .

كلاوش : أثبت أنه أكفأ عامل لاسلكى لدى المخابرات السوفيتية . وثق فيه «سورج» بشدة ، رغم أن زوجته روسية بيضاء معادية للنظام الشيوعى . تستر فى الأعمال الحرة . وأسندت إليه الشبكة إدارة شركة طباعة أسسوها ، واستطاعوا الحصول على عقد طباعة مطبوعات الحكومة اليابانية والخرائط البحرية ، والتصميمات السرية .

مياجى : فنان يابانى فوجئ فى الولايات المتحدة الأمريكية بالفوارق الطبقية الشاسعة ، مما جعله يعتنق المبادئ الشيوعية ويتحمس لها ، ثم يلتحق بالحزب الشيوعى الأمريكى ، فجندته المخابرات السوفيتية لخدمة أهدافها فى اليابان بحكم مركزه وشهرته .

زود «سورج» موسكو بمعلومات هامة عن تاريخ استيلاء جيش اليابان على السلطة فى فبراير ١٩٣٦ قبل حدوثه بشهر ، وتوقيت الغزو اليابانى للصين ،

وتفاصيل المحادثات بين ألمانيا واليابان لعقد اتفاقية عسكرية بينهما ، ورغبة ألمانيا فى عقد تحالف مع اليابان ضد الاتحاد السوفيتى ، والحصول على نصوص الاتفاقية بعد يومين من توقيعها ، وتقارير عن الفرق اليابانية التى أعيد تنظيمها فى الصين ومنشوريا واليابان ، وبرنامج إعادة بناء الأسطول اليابانى ، والتركيبات الجديدة فى السفن الحربية ، والتصميمات الحديثة للدبابات ، وتعديل تشكيلات الطائرات الجديدة ، وكتالوجات الآلات الصناعية والأسلحة الجديدة ، وجداول الآلات اللازمة للطائرات المقاتلة والقاذفة ، وموعد هجوم ألمانيا على أراضى روسيا فى يونيه ١٩٤١ .

★ جاسوسية المقاومة

حكم الألمان أوروبا خلال الفترة من عام ١٩٤٠ـ١٩٤٥م ، لكن جماعات المقاومة واصلت القتال داخل البلاد المحتلة . كانت الجماعات تستخدم عادة الموجات اللاسلكية القصيرة لإرسال المعلومات . وكانت الأجهزة تسمى «**صناديق الموسيقى**» ، ومنها اشتق اسم شبكة شيوعية تعمل داخل ألمانيا ، سميت باسم «**الأوركسترا الأحمر**» ، ظلت «تعزف» معلوماتها إلى موسكو لمدة ثلاث سنوات ، تستقيها من داخل وزارة الخارجية الألمانية ، ووزارة الطيران ، ووزارة العمل ، ووزارة الدعاية . استبد الغيظ بزعماء النازى . ولما ضبطوا الخلايا عام ١٩٤٢ ، أعدموا ١١ زعيما بطريقة وحشية وعلقوا جثثهم على خطاطيف الذبائح مغروسة فى نحورهم .

تسبب بث المعلومات لاسلكيا فى مشكلات معينة . أمكن تحديد مواقع أجهزة الإرسال بعملية تسمى «**التثليث**» ، تعتمد على حساب المثلثات ، وفى حالة ضبط جهاز إرسال كانوا يستخدمونه فى بث معلومات زائفة . طوّر ضابط المخابرات الألمانى «**الكولونيل جيسكى**» لعبة الراديو هذه إلى عمل فنى استولى على وكر إرسال تستخدمه المقاومة الهولندية للاتصال بالمخابرات البريطانية ، فاستخدمه فى إرسال أخبار مزيفة عن نجاحات عظيمة زعم أن المقاومة حققتها فى هولندا ، وطلب بإلحاح إرسال مزيد من العملاء . لبت بريطانيا طلبه . وأسقطت بالمظلات الجاسوس تلو الآخر فى هولندا ، وكان رجال «جيسكى» فى انتظارهم يلتقطونهم بمجرد هبوطهم وينقلونهم إلى معتقلات الأسرى .

تدريب جنود المقاومة الشعبية

لم تكن المعلومات كلها من حصاد العملاء المدربين . كان المدنيون غير المدربين يمثلون العمود الفقرى لمجموعات المقاومة . آلاف المواطنين العاديين من الرجال والنساء عاشوا عهد الاحتلال الألمانى يوما فى البيت ويوما فى الخلاء ، فى خوف متواصل من خطر التعذيب والإعدام . من هؤلاء صباغ فرنسى اسمه «**رينيه دوتشى**» حصل على عمل فى «**منظمة تودت الألمانية**» ، وصار مسئولا عن بناء تحصينات ساحلية على شاطئ فرنسا الشمالى . استطاع أن يسرق خريطة هذه التحصينات التى سميت «**جدار الأطلسى**» ، والتى سلكت طريقها المحفوف بالمخاطر إلى لندن ، فى علبة بسكويت ، يحملها زورق صيد . وأثبتت الخريطة أهميتها القصوى للحلفاء ، حينما أرادوا إبرار قواتهم على شواطئ فرنسا الشمالية .

كانت مجموعات المقاومة فى قمة النشاط حيثما أقام الألمان مشروعات عسكرية جديدة . فقد كررت مجموعة نرويجية تدمير المحاولات الألمانية لصنع الماء الثقيل الضرورى لصنع القنابل الذرية .

★ ليبا دومب والأوركسترا الحمراء

كثيرا ما كان «ليبا دومب» يقول : « أنا شيوعى ، لأنى يهودى » وكان هذا هو التفسير التقليدى ، الذى يذكره يهود أوروبا الشرقية ، الذين رأوا أن فى اعتناق

الماركسية ـ أو مجرد ادعائها ـ خلاصهم من الاضطهاد فى دول أوروبا الشرقية ، قبل الحرب العالمية الثانية . خلق الخوف من المحرقة ثورة متأججة فى أعماق «دومب» وكانت وكالات المخابرات لست دول تغربل أوروبا ، بحثا عن واحد من أعتى الجواسيس على مدى الزمان .

فى عام ١٩٢٥ ، كان «دومب» فى سن التاسعة عشر . وكان ثائرا يؤمن باستخدام العنف لتحقيق الأهداف الثانوية . مما أدى إلى فصله من مصنع جلود فى وطنه بولندا . فى هذه السنة انضم «دومب» إلى الحزب الشيوعى البولندى ، حيث برز حماسه الثورى ، وظهرت مواهبه الاستخبارية ، وقدراته القيادية الطبيعية ، وأثبتت أنه كفء لأمور أعظم . وفى الوقت نفسه التفتت إليه أنظار السلطات البولندية ، فاعتقلته عام ١٩٢٨ لأنشطته الثورية . وصدر إليه أمر بمغادرة البلاد ، بدلا من الحكم عليه بالسجن . فذهب إلى «مارسيليا» بفرنسا ، ثم هاجر إلى «**فلسطين**» .

بمجرد وصلوه إلى فلسطين ، بدأ فى تنظيم خلايا شيوعية ، مما عجل بلفت انتباه سلطات الانتداب البريطانى إليه ، فأبعدوه إلى فرنسا ، حيث أصبح شخصية مرموقة فى شعبة العمال اليهود المهاجرين ، بالحزب الشيوعى الفرنسى . مرة أخرى تسببت مهارته التنظيمية وخبرته القيادية فى إلقاء الضوء الساطع عليه . فظهر خطره بوضوح للسلطات الفرنسية ، لكن الحزب تحرك قبل أن تمسه الحكومة الفرنسية بسوء . وأرسل «دومب» إلى «موسكو» ، ليحضر تدريبا حزبيا أعلى ، فى جامعة الأقليات الوطنية . التابعة لمنظمة «**ستالين**» للأحزاب الشيوعية الدولية ، التى تشرف على أنشطة الحزب فى كل أنحاء العالم .

هذا يعنى أن «دومب» يعتبر من ألمع نجوم الحزب ، وأنه يتدرب ، ويتهيأ ليقوم بدور قيادى مستقبلا . لكن دوره القيادى فى الحزب لم يتحقق ، لأن المخابرات الروسية تنبهت إلى قدراته ، مما كان له أعمق الأثر فى حياته . نفس السمات التى أعجبت قيادة الحزب فى «دومب» وهى الجرأة ، والقدرة على التوجيه ، والذكاء الخارق ، والشعور بالمسئولية ، ودقة الإنجاز ... نفس السمات والقدرات جذبت إليه اهتمام «**جان بيرزن**» ، رئيس المخابرات السوفيتية ، الذى كان يتمتع بقدرة فائقة على تمييز وتجنيد أبرع الجواسيس اكتشف «بيرزين» فى «دومب» ذلك المزيج من

السمات الأساسية للجاسوس النموذجى : برودة التفكير ، ودفء القلب ، وصلابة الأعصاب ، وقوة الشكيمة .

بدأ «دومب» أنسب ما يكون للوظيفة الجديدة : فهو قصير القامة ، قوى البنيان، يشع شخصية قوية نشطة عدوانية ، تعكس انطابعا بأنه مستعد لاختراق حائط برأسه إذا كان ذلك ضروريا للحصول على ما يريد . وكان مظهره يوحى بجرأة متناهية فى تحدى الأشخاص ، وحتى التعاليم الصارمة التى يعتقد أنها خطأ .

صقلت «دومب» سنوات العمل الحزبى السرى ، فأظهر رغبة حقيقية فى أعمال الجاسوسية . بعد فترة وجيزة من العمل مع شبكة صغيرة فى فرنسا فى أوائل الثلاثينات ، لتنشيط مهاراته الجاسوسية ، أصبح مستعدا للدور الحقيقى الذى رسمه له «بيرزن» جاسوس مقيم . فقد كان «بيرزن» يرى أن المخابرات الروسية تحتاج ـ بصفة عاجلة ـ إلى الاستعداد للحرب التى كان واثقا أنها ستشتعل خلال سنوات قلائل . كانت ألمانيا محور الارتكاز . لكن الحزب الشيوعى الألمانى ، وشبكة الجاسوسية السوفيتية فى ألمانيا ، كانا مرهقين بضغوط «هتلر» ، فكان من الضرورى إعادة بناء جهاز مخابرات جديد ، تسهر عيونه لمراقبة أخطر أعداء الاتحاد السوفيتى . راعى «برزن» فى خطته تجنب أخطار محاولة بناء شبكته فى دولة النازى البوليسية . وبدلا من ذلك اعتمد على سلسلة من أجهزة مخابرات صغيرة ، خارج حدود ألمانيا ، على أن تكون أهمها فى بلجيكا وفرنسا ، وأن يبنيها «دومب» بنفسه .

ذهب «دومب» إلى «**بروكسل**» فى مايو ١٩٣٩ وبدأ العمل بمجرد وصوله . كان عليه أن ينشئ عددا من الأغطية التجارية فى أنحاء أوروبا ، تصل مجساتها إلى داخل ألمانيا النازية نفسها . انتحل شخصية رجل أعمال كندى المولد اسمه «**جين جيلبيرت**» ، وأسس شركة تجارية سماها «**سيميكسكو**» ، وفى العام التالى أنشأ شركة «**سيميكس**» فى باريس ، ونشط فى تجنيد العملاء . وما أن نشبت الحرب العالمية الثانية ، حتى كان قد أسس شبكة محكمة التنظيم ، من خلايا تجسس ، تتكون من وكلاء مدنيين محترفين ، وشيوعيين محليين . وامتدت سلسلة خلاياه من بحر الشمال إلى سويسرا ، واشتملت على خلية صغيرة داخل ألمانيا النازية ، تتكون من فريق شيوعيين ألمان ، أخفوا ميولهم السياسية ، وحصلوا على وظائف حكومية .

بلغ عدد عملاء «دومب» حوالى ٢٠٠ عميلاً ، يحتلون مراكز فى ـ أو قرب ـ ما كان يسميها «**نقاط التشغيل**» ، أو مراكز تجمع وتجميع وتوزيع المعلومات . آمن «دومب» بأن المعلومات الحيوية يمكن وجودها حتى فى أبسط المكاتب الحكومية المغمورة ، بشرط أن يعرف العملاء ضالتهم . أثبت «دومب» صحة نظريته هذه بالتطبيق فى فرنسا ، حيث كان معظم أفضل عملائه بعد الغزو الألمانى اكتشف أن أحسن طريقة للحصول على معلومات عن مواقع ونظم القوات الألمانية فى فرنسا ، كانت عن طريق وكالة صغيرة غير مشهورة ، اسمها «**المكتب الفرنسى لإسكان الجنود**» ، وهى وكالة فى «**فيشى**» تعمل فى مجال تنظيم إسكان قوات الاحتلال الألمانية ، وفقا لنظم إسكان الجيش الفرنسى ، مع تزويدهم بتسهيلات مدنية . ومن خلال العملية كانت الوكالة تعرف تحركات واتجاهات كل الوحدات الألمانية فى البلاد . وبنفس الطريقة كانت شبكة من موظفى السكك الحديدية الفرنسية الذين يعملون مع الألمان فى تحريك القطارات العسكرية الألمانية بالنظام الفرنسى ، ومن خلال ذلك يعرفون تحركات الوحدات الألمانية داخل فرنسا وخارجها .

وتبنى «**دومب**» أيضا إنشاء شركة هامة كغطاء لنشاطه التجسسى ، تعمل مع «**منظمة تودت الألمانية**» ، لتأديه جميع أعمال البناء العسكرى ، سواء منها مبانى المكاتب والإيواء ، أو القواعد الحربية ، وكل ما يتعلق بماكينة الحرب الألمانية . وكان ممثلو شركة «سيميكس» يحصلون على جوازات مرور من السلطات العسكرية الألمانية ، تسمح لهم بدخول المناطق العسكرية الممنوعة ، وهى أقصى ما يحلم به الجواسيس .

خلال الأشهر الثمانية عشر الأولى من الحرب ، لم يدر الألمان بشئ عن شبكة «دومب» المنتشرة فى أوروبا المحتلة . كان «دومب» حذرا ، يعلم أن أجهزة اللاسلكى التى يستخدمها فى إرسال المعلومات إلى موسكو تمثل أهم نقاط ضعفه، لأن فرق الاهتداء إلى أجهزة اللاسلكى ـ الألمانية ـ كانت على جانب عظيم من المهارة والخبرة ، فكان «دومب» يغير أماكن أجهزته على فترات قصيرة ، ينقل بعدها الأجهزة إلى مواقع جديدة .

فى عام ١٩٤٠ أثمرت معلومات «دومب» عن تحركات القوات الألمانية فى فرنسا وبلجيكا ، حينما اكتشف عملاؤه تحرك القوات الألمانية المفاجئ نحو الشرق.

وطالما أن بولندا لم تكن فى خطر هجوم وشيك ، استنتج «دومب» أن «هتلر» حول انتباهه عن بريطانيا ، إلى الاتحاد السوفيتى . وتمكن «دومب» بالاشتراك مع مخابرات أخرى ، فى ديسمبر عام ١٩٤٠م، أن يرسل قدراً ضخماً من المعلومات من أجهزته المتنقلة ، عن عملية «باربروسا» ، خطة هتلر لغزو الاتحاد السوفيتى فى ربيع عام ١٩٤١ ، بما فى ذلك الوحدات الألمانية المخصصة للعملية ، وزود موسكو بنظام المعركة كاملا .

تكلف «دومب» مجهودا جبارا لإرسال كل تلك المعلومات فى رسائل قصيرة . لكنه شعر أن العمل يستحق ما بذل فيه من جهد ، طالما أن الاتحاد السوفيتى قد أدرك الخطر . وكم كان فزعه كبيراً ، حينما رفض ستالين تصديق تقاريره واستنتاجاته . ولشدة اقتناعه بأن الألمان لن يهاجموا الاتحاد السوفيتى ، علق على تقرير المخابرات السوفيتية القادم من «دومب» ، بضرورة معاقبة كاتب التقرير . ومن حسن حظ «دومب» أن قيادة المخابرات السوفيتية تحملت مخاطر تجاهل هذا التعليق.

لم يتوقف «دومب» عن تغذية موسكو بسيل متصل من المعلومات عن الحشود العسكرية الألمانية للغزو المرتقب ، الذى استمر «ستالين» فى تجاهله.

وفجأة تغير كل ذلك صباح ٢٢ يونيه ١٩٤١ ، حينما غزت ألمانيا الاتحاد السوفيتى . وهنا فقط ثبت صدق تقارير «دومب» ، فانهالت عليه طلبات مركز المخابرات السوفيتية فى موسكو ، لإرسال كل قصاصة معلومات يمكنه جمعها عن الآلة الحربية الألمانية . واستجابة لذلك اشتغلت أجهزة اللاسكى التابعة «لدومب» على مدار الساعة تقريبا ، تضخ المعلومات نحو الشرق . واستطاع أن يحذر من خطة ألمانية لهجوم نحو «موسكو» وفى شهر نوفمبر استطاع أن يعرف تفاصيل خطة ألمانيا العدوانية على القوقاز ، التى انتهت فى «**ستالينجراد**» .

عند هذا الحد أدرك «دومب» أن عمليته تفقد قيمتها تدريجيا . كان يعلم أن نجاحه المستمر فى بث العلومات إلى موسكو ، هو ذاته بذرة هدم شبكة مخابراته بأسرها ، لأن فرق البحث الألمانية عن أجهزته اللاسلكية كانت توشك أن تهتدى إليها وتوقع بها . المأزق لا مخرج منه .. فى تلك الساعة الحرجة كان الاتحاد السوفيتى فى أمس الحاجة إلى المعلومات التى يرسلها «دومب» . ولم يكن أمامه

خيار إلا أن يشغل أجهزته اللاسلكية الساعات تلو الساعات . وهذا يعنى إعطاء الفرصة لفرق البحث الألمانية عن أجهزته اللاسلكية للعثور عليها .

كان الألمان يقتربون منها بالفعل . فقد ظلت محطات البحث الألمانية ، تستكشف الرسائل اللاسلكية الشفرية المتجهة إلى الشرق ، من عدة أجهزة إرسال فى الغرب ، منذ عام ١٩٤١ ، ورجحت أنها تابعة للمخابرات السوفيتية . وعلى الرغم من عجز الألمان عن حل الشفرة ، إلا أنهم واصلوا بذل الجهد للبحث عن الأجهزة وعن المرسلين . وخصصوا لذلك عملية مضادة للجاسوسية مشتركة بين الجستابو والمخابرات الألمانية .

فى يونيه ١٩٤١ اتضح للألمان أن البث بدأ فجأة يمتد عدة ساعات فى نوبة الإرسال الواحدة ، مما أتاح لفرق البحث اللاسلكى وقتا أطول لتتبع مصدر الإشارات . وكعادتهم فى استخدام مصطلحات موسيقية لتسمية عمليات البث السرى الحديثة ، أطلقوا على عملية شبكة دومب : «**الأوركسترا الأحمر**» ، وهو الاسم الذى عرفت به بين أساطير الجاسوسية .

حينما اقترب الألمان من محطات «دومب» ، اتخذ تدابير فك شبكته وهرب . أخفى شخصيته تحت أسماء مستعارة مختلفة ، بما فيها الاسم الأكثر استخداما ، وهو «**جين جيلبرت**» أو «**مسيو جيلبرت**» ، الذى قيل إنه توفى فجأة وفاة طبيعية ، وكان لدومب ـ بالطبع ـ شاهد مقبرة يحمل هذا الاسم أعد لمدفن فارغ ، فى مقابر باريس .

حدد «دومب» يناير ١٩٤٢ موعدا أقصى لإنهاء تصفية شبكته . لكن فى ١٣ ديسمبر ١٩٤١ عثر الألمان على إحدى محطات الإرسال الهامة فى بيت بمدينة بروكسل .. أغاروا على البيت وقبضوا على أعضاء كثيرين من الشبكة ، ومشغل لاسلكى يعمل على الجهاز . والأغرب من ذلك أن «دومب» نفسه حضر إلى البيت أثناء الغارة ... فكر بسرعة واستطاع أن يفلت ، مدعيا أنه بائع أرانب متجول، فلم يتعرض له الجستابو بسوء ، وتركوه يمضى فى سبيله .

أسفر تعذيب العملاء المقبوض عليهم عن سرعة التعرف على حقيقة شخصية بائع الأرانب المتجول ، فاتجهت قوات الجستابو إلى الانتشار فى كل مكان لصيد «دومب» . وفى الوقت نفسه بدأ الألمان يحطمون شبكة الأوركسترا الأحمر ، حتى

انهارت تماما فى كل أنحاء أوروبا بانتصاف عام ١٩٤٢ . واستطاع «دومب» أن يتهرب من الاعتقال حتى أكتوبر ١٩٤٢م، حين تعرف الألمان على أحد أسمائه المستعارة ، وتعقبوه إلى عيادة طبيب أسنان فى باريس . حيث جلس على مقعد العلاج ينتظر يد الطبيب ليخلع ضرسا مريضا .. قال لوكلاء المخابرات الألمانية وهم يقبضون عليه : «أهنئكم. لقد أجدتم العمل» .

ظل ما حدث بعد ذلك موضع جدل . قال الألمان : كانت المخابرات الألمانية تطمح إلى تنفيذ خطة ذكية . فى تقديرهم أن «موسكو» تعرف أن «الأوركسترا الأحمر» آيل إلى الانهيار ، لكنها لا تعرف الفروع التى سقطت ، كما لم تعرف بعد أن «دومب» نفسه وقع فى الأسر . خطة المخابرات الألمانية تقضى باستخدام «دومب» مخلب قط ، يغذى موسكو بمعلومات خادعة . ادعى الألمان أن «دومب» رحب بالفكرة ، بل وافق على خيانة الأعضاء الباقين من «الأوركسترا الأحمر» ، وأعضاء المقاومة الفرنسية الذين خدموا كعملاء لشبكته . قال «دومب» فيما بعد إنه وافق أن يشترك مع الألمان فى لعبة اللاسلكى الصغيرة ، على أمل تحذير موسكو فى أول فرصة وأنكر خيانته لأى عميل من عملاء عملية «الأوركسترا الأحمر» .

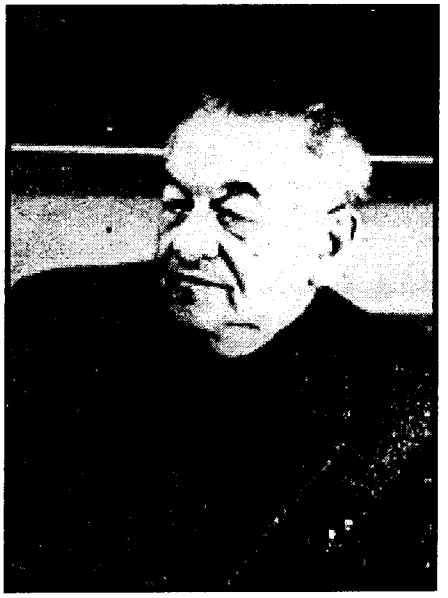
ليبا دومب

بدأ الألمان بث المعلومات المزيفة إلى «موسكو» موقعة باسم «دومب» . وكانت ردود السوفييت توحى بأن «موسكو» ابتلعت الطعم . لكن الحقيقة هى أن المخابرات السوفيتية شعرت من أول لحظة بسقوط المحطة ، عن طريق الإشارة السرية . وأدركت أن «دومب» أصبح يعمل تحت سيطرة المخابرات الألمانية . لذا استمر الروس فى اللعبة إلى النهاية ، وطلبوا المزيد من المعلومات عن الخطط العسكرية الألمانية . وفى يونيه ١٩٤٣ أدركت المخابرات الألمانية بطريقة ما أن الروس يخدعونها، فأنهوا المباراة .

مهما تكن خطة الانتقام التى دبرها الألمان ضد «دومب» ، فقد تفاداها بالهرب فجأة من قبضة المخابرات الألمانية الرخوة ، إذا طلب من حراسه مرافقته إلى صيدلية لشراء عقار لقلبه ، وتسلل من الباب الخلفى ، بينما هما ينتظران خروجه من الباب الأمامى ، واختفى تحت أرض باريس ، ولم يظهر إلا بعد التحرير . بعد عدة شهور من التحرير ، طلبته «موسكو» لمناقشة موضوعات غير محددة . وعندما وصل ارتكب خطأ الشكوى من تجاهل معلوماته عن عملية «بربروسا» ، وإصرار موسكو على إطالة فترات البث مما عرض الشبكة إلى الانفضاح بواسطة الألمان .. وجهوا إليه تهمة خيانة «الأوركسترا الأحمر» لصالح الألمان ، وصدر ضده حكم بالسجن ١٠ سنوات . وأفرج عنه فى أعقاب وفاة «ستالين» عام ١٩٥٣م ، وأذنوا له بالهجرة إلى وطنه بولندا .

تخلص «دومب» من الشيوعية ، وتحول إلى قضية الصهيونية ، وأصبح زعيم البقية الباقية من أفراد الطائفة اليهودية البولندية وسرعان ما اصطدم بالسلطات حينما رفضت الحكومة السماح للطائفة بالهجرة إلى إسرائيل . وكاد «دومب» أن يغيب فى السجن مرة أخرى ، لولا أن أنقذته المخابرات السوفيتية ، إذا بدأت حملة دعاية تجلو فيها صور جواسيسها ، بنشر تفاصيل بطولات أشهرهم ، ومن بينهم «دومب» . وهكذا أنقذه النشر من السجن فى بولندا ، لكن السلطات ظلت متمسكة بعدم السماح له بالهجرة إلى إسرائيل ليعيش سنوات عمره الأخيرة . وأخيرا ـ تحت ضغط من موسكو ـ أذنوا له بالهجرة عام ١٩٧٤م ، وتوفى فى «القدس» عام ١٩٨٣م .

★ فريتز كودرز وانتصار المحتال

اسمه الحركى «ماكس» والمستعار «**ريتشارد كلات**» ، والحقيقى «**فريتز كودرز**» ولد فى فينا عام ١٩٠٣ ، ولا يعرف حتى الآن متى مات ولا أين دفن . كان وسيما ، حلو اللسان ، جم الأدب ، منافقاً ، كثير المجاملة ، لا يكف عن الرياء والملق ، كما كان حاد الذكاء ، تتجسد فيه سمات الأقليات ، بما فى ذلك النعومة ولين الجانب وبرود الأعصاب ، وشكلت منه هذه السمات نموذجا مثاليا لجواسيس أوروبا فيما قبل الحرب العالمية الثانية .

كان لمولده من أم يهودية وأب كاثوليكى أثر كبير فى تكوين شخصيته . وعاش

سنى ما قبل حرب عام ١٩٣٩ حياة مبنية على الخداع والاحتيال ، بدأ حياته فى العشرينات صحفيا ، وسرعان ما اكتشف أنه يستطيع أن يثرى سريعا عن طريق الصفقات المريبة ، وبيع أوراق تحقيق الشخصية ، والتوسط لطالبى الهويات وجوازات السفر لدى المرتشين من موظفى إدارات الجنسية فى أكثر من خمسة بلاد أوروبية . وهكذا توطدت العلاقة بينه وبين شبكة من موظفى الحكومات الأوروبية ، فيما بين بحر البلطيق ، والبحر الأبيض المتوسط .

ما إن أقبل عام ١٩٣٩ حتى اكتمل نضج كودرز كمشروع جاسوس . لفت أنظار شخص غمض اسمه «أندرى توركهول» ، فضمه إلى شبكة جاسوسيته الضخمة ، التى شكلت أساسا من الروس البيض المنفيين ، لحشد المعلومات من جميع أنحاء أوروبا ، بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى ، أو هكذا زعم «توركهول» لمشغليه الموهوبين ـ وكالة المخابرات الألمانية ـ بينما هو يدين بالولاء الحقيقى للمخابرات السوفيتية ، التى جندته قبل عشرين سنة تقريبا ، وكان «توركهول» مواظبا على إبلاغ السوفيت بعمليات المخابرات الألمانية أولا بأول . وأوحى تجنيد «كودرز» إلى المخابرات السوفيتية بفكرة لعبة أكبر لخداع ألمانيا النازية ، وتتطلب هذه اللعبة خطة صبورة جسورة ، يستغرق تنفيذها سنوات ، يتم خلالها تزويد «كودرز» بالتعليم والتدريب المكثف حتى يصبح جديرا بالثقة قادرا على القيام بكل ما يعهد به إليه من أعمال .

تولى «**توركهول**» تطوير «كودرز» بأناة ، وكان الأخير يختفى وراء اسم مستعار، هو «**ريتشارد كلات**» الذى يعمل كرجل أعمال . وبمساعدة موسكو أخذ يغذى المخابرات الألمانية بسيل من معلومات الدرجة الثانية ، ليعزز نمو سمعته ، كما افتعل بنفسه بعض العمليات البطولية ، كسرقة أوراق دبلوماسية حساسة من مكتب القنصلية الأمريكية فى «زغرب» بيوغوسلافيا .

كان «كودرز» يتقاضى مرتبا شهريا طيبا من المخابرات الألمانية ، لكنه كان يريد شيئاً آخر ، وهو قطعة من الورق لا تقدر بثمن ، وهى شهادة إثبات الجنسية الآرية . تصدر هذه الوثيقة حكومة النازى ، وتشهد بأن حاملها «آرى» طبقا لتحريات خبراء الأجناس . وتعتبر هذه الورقة بمثابة منقذ من الهلاك ، بالنسبة لأبناء الزواج المختلط من أمثال «كودرز» ، وبدونها يمكن التقاطه فى أية لحظة ، وشحنه إلى معسكر الموت .

لم يكن الحصول على هذه الشهادة أمراً سهلاً ، فقد كان النازى يتشددون جداً فى صرفها لأى شخص تشم فيه رائحة النسب اليهودى ، وحتى كبار ضباط المخابرات ، لم يكن لهم حظ كبير من النفوذ حيال التوصية بصرفها ، بل إنهم كانوا يخشون التعرض للشبهة . لم تتمكن المخابرات الألمانية من تزويده بهذه الشهادة ، التى تقيه من الجستابو إذا خالف قيداً من قيود النازى الألمانى الصارمة . لم يكن مسموحا لأى يهودى بالخدمة فى وكالة المخابرات الألمانية ، ومما يثير الدهشة أن «كودرز» لم يحظ بحماية المخابرات الألمانية وحدها كعميل يهودى ، وإنما شملته مخابرات النازى الألمانية أيضاً بحمايتها ، فتوافرت له إمكانيات أعظم .

أما السبب فهو أنهم كانوا يعتبرون «كودرز» المصدر الأصلى لمعلومات الاتحاد السوفيتى ، وهو بذلك مصدر ثمين ، يستحق المغامرة بتوظيفه مهما يكن يهوديا . واستطاع الجاسوس اليهودى أن يثبت للألمان حسن ظنهم به ، وأن يجلو سمعته لدى المخابرات الألمانية ببعض الأعمال ، وأوصى «توركهول» به خيرا فى تقرير ذكر فيه أن «لكودرز» شبكة اتصالات خاصة به داخل الاتحاد السوفيتى ، امتدت إلى بعض كبار ضباط قيادة الجيش .

التقط الألمان الطعم الذى ألقى لهم فى الوقت المناسب . كانوا قد غزوا الاتحاد السوفيتى ، ويتلهفون على معلومات عن الجيش الأحمر . وقال «كودرز» إنه قادر على تزويدهم بها ، بشرط أن يمدوه بجهاز اتصال لاسلكى ، وأن يطلقوا له حرية الحركة بين مصادره العليا والمخابرات الألمانية ، وأن لا يطلب منه كشف النقاب عن شخصية مصادر معلوماته .

وافقت المخابرات الألمانية على شروطه ، وأطلقوه فى «**صوفيا**» عاصمة بلغاريا ومعه جهاز الاتصال ، وأثبت «**ماكس**» ـ وهو اسمه الحركى ـ منذ اللحظة الأولى أنه عميل بارع . إذا أعطى رؤساءه سيلا من تقارير ممتازة عن نظم الجيش السوفيتى ومواقعه ، واتضح أنها معلومات صحيحة ، وإنها أدت إلى انتصارات فنية . وفى عام ١٩٤٢ صار «كودرز» عميل ألمانيا الأوحد ، وأهم مصدر للمعلومات عن الاتحاد السوفيتى ، وامتدحه عمالقة الجاسوسية من أمثال : «**رينهارد جيهلن**» رئيس المخابرات العسكرية الألمانية ، و «**ويلهيلم كاناريز**» رئيس المخابرات الألمانية .

من ناحية أخرى كان وكلاء المخابرات الألمانية فى صوفيا لا يشعرون بارتياح

لكودرز ، بل ساورتهم الشكوك فيه منذ البداية ، وتعمقت شكوكهم على مر الأيام. كانوا يسألون بعضهم البعض : من أين يحصل على تلك المعلومات بالغة الأهمية؟ ... كان يدعى أن مصادره تضم ضباطا كبارا فى القيادة الروسية العليا ، وأن له مصادر مقربة من «ستالين» نفسه . وقال إن تلك المصادر كانت تبث له القرارات سراً بعد دقائق من صدورها فى اجتماع ستالين بمجلس الحرب .

مثل هذا الكلام لا يصدقه ضابط مخابرات يعرف حكم ستالين البوليسى ومقدار الدقة والإحكام الذى كان يتميز بهما نظام الأمن الداخلى الروسى لذا راقب بعض ضباط المخابرات الألمانية فى صوفيا فترات تشغيل جهاز راديو «كودرز» ، فاكتشفوا أن مدة التشغيل لا تضاهى حجم المعلومات التى يدعى كودرز أنه يستقبلها ، فضلا عن أن فكرة وجود خونة ضمن القيادة السوفيتية العليا ، وقيامهم ببث المعلومات من الكرملين مباشرة ، لا يصدقها حتى السذج .

وبناء عليه انتهى رجال المخابرات الألمانية فى صوفيا إلى أن «كودرز» عميل سرى زرعه السوفيت فى المخابرات الألمانية بقصد تمرير الخدع والأضاليل الاستراتيچية . وعلى الرغم من تكرار الشكوى لقيادة المخابرات الألمانية فى «**برلين**» إلا أن الثقة فى «كودرز» لم تهتز ، لأن المعلومات التى كان يحصل عليها كانت حقيقية وقوية ، ولا يهم معرفة مصدرها .

لم يعرف الألمان أن الروس يرخون لهم حبل الوقت فى انتظار اللحظة المناسبة . ضحوا كثيرا من أجل تغطية «كودرز» وإثبات صدقه ، وفى أواخر شتاء عام ١٩٤٢ تحرك الروس ، وقال «كودرز» للألمان إن مصادره الروسية أخبرته بخطة مواجهة الجيش السادس الألمانى فى «ستالينجراد» ، وأوامر ستالين بالدفاع عن المدينة لآخر قطرة دماء وأضاف «كودرز» تفاصيل أخرى ، فحدد فرق الجيش الروسى المخصصة للمعركة ، وخطة نقل الوحدات عبر نهر «الفولجا» ليلا ، وأسماء القادة المكلفين بإجلاء الألمان عن المدينة .

بدت المعلومات كأنها كاملة ممتازة ، لكن سرعان ما اكتشفت المخابرات الألمانية أن «كودرز» لم يعرف أن خطة السوفيت تضمنت الهجوم بحركة كماشة ضخمة تكتسح شرق وغرب المدينة ، مع تركيز الضغط على الأجنحة الضعيفة ، المكونة من القوات المجرية والرومانية المتحالفة مع الألمان ، وهكذا حاصرت الجيش السادس الألمانى بأسره ، وقوامه ٢٥٠٠٠٠ جندى. وأحاط المدافعون السوفيت بستالينجراد

خلال شهر ، وأرغموا ما بقى من الجيش السادس على الاستسلام وكانت هزيمة لم تقم للجيش النازى بعدها قائمة .

رغم هذه الكارثة ، ظل الجاسوس اليهودى موضع اعتبار واضح ، وفى عام ١٩٤٤ حبك السوفيت خدعة أخرى كانت القاضية ، وأنهت دوره المزعوم كأعظم جواسيس ألمانيا . الخدعة تتعلق بقرار شن هجوم عسكرى سوفيتى عام ، لتحطيم الجيوش الألمانية فى الشرق وأبلغ «كودرز» المخابرات الألماينة بأن الهجوم الروسى وشيك ، وأنه موجه إلى جنوب «أوكرانيا» ، بقصد احتلال «البلقان» ، مما دفع الألمان إلى تركيز قواتهم فى الجنوب ، ولما هبت العاصفة ، اتضح لهم أن الهجوم الروسى تركز فى الجبهة الوسطى ، على بعد أكثر من ٤٠٠ ميل وهلك فى المعركة حوالى نصف مليون جندى ألمانى ، لم يتوقف نزيف دماء الألمان ، ولم يتوقف الزحف الروسى بعد هذا الهجوم ، إلا بعد أن قرعت أقدام الجنود السوفيت شوارع «برلين» بعدة عدة أشهر .

بدأ النزاع يدب بين «كودرز» وضباط الاتصال الألمان فى «صوفيا» . اكتشفوا أنه يدير عددا من العمليات الخاصة ، ويرشو رجال الشرطة البلغار ليغضوا الأبصار عن بعض عملياته ، مما ينم عن خلل فى شخصيته وتصرفاته ، جعلهم يعيدون النظر فى عملية «ماكس» برمتها ، وأخيرا اختفى كل شك فى أن «كودرز» عميل زرعه الروس فى جسد المخابرات الألمانية .

توصلت المخابرات البريطانية إلى النتيجة نفسها ، أثناء قيامها بعملية «**ألترا**» لقراءة الشفرات المتبادلة بين صوفيا وبرلين عام ١٩٤٣ ، أبلغ الإنجليز حلفاءهم الروس بأن للألمان جاسوساً يحصل على معلوماته من مصادر عسكرية روسية عالية ، ويغذى بها المخابرات الألمانية بواسطة الراديو فى «صوفيا» ، حيث يوجد عميل مقيم، يحول المعلومات إلى «**برلين**» ، واسمه الحركى «ماكس» . واتضح للمخابرات البريطانية أن الروس لم يكترثوا رغم خطورة البلاغ ، وهذا البرود الشديد لا يعنى سوى أن ماكس عميل روسى يلعب دوراً ماكراً .

فى الوقت نفسه انتهت المخابرات الألمانية إلى أن ماكس يعمل فى خدمة السوفيت . وهذا يكفى فى الظروف العادية للحكم عليه بالموت . لكن «كودرز» نجا لأن المخابرات الألمانية كانت مرتبكة فى ذلك الوقت العصيب بعد إجهاض مؤامرة الإطاحة بهتلر عام ١٩٤٤م ، التى ثبت تورط «كودرز» فيها ، صدر قرار بحل وكالة المخابرات الألمانية ، وإسناد وظيفتها إلى إدارة أخرى . ومما يثير الدهشة أن

الإدارة الجديدة استمرت فى الاعتقاد بأن «كودرز» عبقرى ، وصممت على إنقاذه وحمايته . نقلته للعمل فى خدمة المخابرات المجرية ، تهربا من القانون الذى يجرم استخدام عميل يهودى فى وكالة المخابرات الألمانية أو فروعها . لكن هذه الحيلة فشلت ، فقد استشاط غضب هتلر حينما علم أن وكالة مخابراته كانت تستخدم عميلا يهوديا ، فأمر بإرساله إلى معسكرات الاعتقال . تدخل الجنرال «**هينز جوديريان**» رئيس الأركان العامة ، لإلغاء أمر اعتقاله ، واستغرق ذلك وقتا قضاه فى سجن عسكرى ، وأفرج عنه فى مايو ١٩٤٥م حينما كانت ألمانيا النازية تنهار . فهرب إلى النمسا تحت حماية «**توركهول**» ، وبعد أسابيع قليلة قبض عليه الأمريكيون باعتباره عميلاً نازياً.

أمضى فى المعتقل الأمريكى عاما ، لكنه استطاع باحتياله أن يحصل على الإفراج ، بل أنه تمكن من إقناع «**مكتب الخدمات الاستراتيجية**» بوضعه فى قائمة العملاء العاملين ضد الاتحاد السوفيتى فى النمسا . استاء السوفييت من تحوله المفاجئ ، حينما أبلغهم به «توركهول» وفى فبراير ١٩٤٦م حاولوا اختطافه بواسطة فريق من العملاء يرتدون زى الشرطة العسكرية الأمريكية ، لكن عملاء المخابرات أحبطوا المحاولة ، وفطن «كودرز» إلى ما يراد به فاختفى . وفى عام ١٩٦٤م ظهر مرة أخرى فى «**فينا**» ليعرض خدماته على وكالة المخابرات الأمريكية، لكن أحدا لم يثق به من رجال الوكالة ، فرفضوا عرضه ، واختفى مرة ثالثة .

مرت سنوات عديدة قبل أن يهتدى الأمريكيون إلى وثائق ، حللوها ، فتحققوا من أن «كودرز» هو ذاته صاحب الاسم الحركى المزيف «ماكس» العميل الخفى الذى فعل الكثير من أجل تلغيم عمليات ألمانيا العسكرية فى الجبهة الشرقية .

ترك اختفاء «كودرز» علامات استفهام كثيرة حول «عملية ماكس» ، فى مقدمتها سؤال حول دوافعه .. لماذا وضع رأسه فى فم الأسد ، بممارسة خدعة يعرف أنها قد تكتشف؟ .. لا دليل على أنه كان ذا ميول شيوعية ، وإلا قلنا إن دوافعه كانت سياسية .. هل وافق على الإسهام فى تدمير النازى لأنه كان يهوديا يبغى الانتقام من هتلر؟ ... ربما ، مع أنه لم يكن متدينا يهوديا ، وكان يصر دائما على أنه كاثوليكى؟ ... هل كان الحصول على المال هو الدافع؟ ... ربما ، وقد كان يتقاضى أجره من الجانبين .

★ جثة تقوم ببطولة عملية اللحم المفروم

فى عام ١٩٤٣م ، كان الحلفاء قد سيطروا على شمال إفريقيا ، واستعدوا لغزو أوروبا المحتلة ، قرروا أن «**صقلية**» أنسب مكان لإبرار القوات ، لكنهم وجدوا أن الألمان سوف يستميتون فى الدفاع عن «صقلية» . وفكروا فى خداع المحور ، وإيهامهم بأن أساطيل الحلفاء سترسو فى مكان آخر . وجدت المخابرات البريطانية حلاً للمشكلة فى مشروع فذ ، اسمه الرمزى «**عملية اللحم المفروم**» ، وكان بطلها جثة .

حصل رؤساء المخابرات على جثة رجل مات بذات الرئة . ألبسوها زى ضابط بالبحرية الملكية . وزودوها بأوراق تشير إلى أنه «الميجور مارتن» ، وأنه فى مهمة سرية إلى قادة الحلفاء فى شمال إفريقيا ، يحمل وثائق سرية توحى بأن الغزو الكبير لن يقع فى «صقلية» ، وإنما فى «**سردينيا**» و «**اليونان**» .

تم نقل الجثة بالغواصة سرا إلى شاطئ «**هيولفا**» فى إسبانيا ، وتركت للأمواج تدفعها ، لتبدو وكأن «**الميجور مارتن**» قد غرق بعد حادث سقوط طائرته فى البحر. كان فى «هيولفا» عدد من الجواسيس الألمان ، وافترضت المخابرات البريطانية أنهم سيعرفون أن أمواج البحر ألقت على الشاطئ جثة تحمل وثائق ، ومن ثم يبلغون القيادة الألمانية العليا .

يتوقف نجاح الحيلة على مقدار ما يبدو عليه مظهر الجثة من إقناع وكان على المخابرات أن تختلق للميجور مارتن المزيف قصة حياة كاملة . وأضفت عليه شخصية كاملة التفاصيل . اختلقوا له قصة حب أثناء الحرب . وجعلوا له حبيبة اسمها «**بام**» ، تعمل فى الأدميرالية ، وضعوا صورتها الفوتوغرافية فى حافظة نقوده. وزودوه بخطابات غرامية تبدو بالية من كثرة القراءة ، وفاتورة شراء خاتم الخطوبة ، وخطاب قاسٍ من مدير البنك ، وآخر يفيض عطفاً وحناناً من والده ، وكعبى تذكرتى مسرح للإيهام بأنه أمضى الليلة الأخيرة مع «بام» قبل قيامه بالمهمة السرية التى أنهت حياته . وحتى تستكمل الحبكة آخر لمساتها ، نشر ضباط المخابرات نبأ وفاة «**ميجور مارتن**» فى صفحة الوفيات بجريدة «**التايمز**» .

وضعوا الجثة فى صندوق معدنى كبير مكتوب عليه «**أدوات بصرية**» ؛ ونقلوه إلى غواصة وأخرجوها من الصندوق لتدفعها الأمواج فى ٣٠ أبريل عام ١٩٤٣م .

وكما كان متوقعا ، تم اكتشاف الجثة فى «**هيولفا**» . وكشفت أوراق الجاسوسية الألمانية بعد الحرب ، كيف أنها اعتبرت الوثائق السرية ضربة حظ وبناء عليها أرسل الألمان الجيوش والأساطيل إلى اليونان وسردينيا ، وحولوا اهتمامهم عـن صقلية ، فوقـعت فريسة سهلة لغزو الحلفاء .

إنزال الجثة من الغواصة

ومما يذكر أن مخابرات الحلفاء قد حشدوا كل مقومات النجاح لعملية «**اللحم المفروم**» . يرجع اختيار شاطئ أسبانيا ـ مثلا ـ لإسقاط الجثة ، إلى أن أسبـانيا كـانت صديقة لألمانيا ، متعاطفة معها ، رغم أنها كانت على الحياد ، ومن ثم فإن إذاعة أسرار الجثة ونقلها إلى ألمانيا تكون مؤكدة . وقد اتضح أن حقيبة المستندات السرية مربوطة برسغ الجثة للتأكد من أنها لن تغرق . وقد شعر ضباط المخابرات أن أى ضابط حقيقى فى مهمة سرية لابد أن يتبع نفس أسلوب الحيطة والحـذر ، حتى لا تتعرض حـقيبته للضياع أو السرقة .

واجهت المخابرات البريطانية مشكلة الحصول على صورة فوتوغرافية للبطاقة الشخصية . حاولوا تصوير وجه الجثة فى البداية ، لكنهم لم يستطيعوا الحصول على صورة تبدو حية . وفى النهاية استقر الرأى على صورة شخص مشابه لصاحب الجثة .

★ جـواسيس الـذرة

اخترع علماء الغرب القنبلة الذرية خلال السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية . وأيقن العالم أنها سلاح رهيب قادر على تخريب مدينة كاملة بضربة واحدة. وحرص قادة الحلفاء الغربيين على ألا يشركوا روسيا معهم فى أسرار الذرة. وصممت روسيا على معرفتها ، فأنشأت شبكة تجسس متعددة الخلايا فى كندا والولايات المتحدة الأمريكية ، حيث كانت مؤسسات أبحاث الذرة الغربية قائمة .

لم يفطن الحلفاء إلى وجود الشبكة الروسية إلا فى سبتمبر ١٩٤٥م . ولما استسلم اليابانيون انتهت الحرب . وبعد أيام قلائل هرب «**إيجور حوزينكو**» كاتب الشفرة الروسى بالسفارة الروسية فى «أوتاوا» بكندا ، ولجأ سياسيا إلى السلطات الكندية ، ثم بدأ اصطياد أفراد شبكة التجسس الروسية فى كندا .

إيجور جوزنكو مقنعا يدلى بحديث صحفى

من هؤلاء عالم اسمه «**كلاوس فوتشس**» ، الذى اعتقل فى لندن عام ١٩٤٩م، وكان كغيره يعمل فى مفاعل «**تشوك ريفر**» بأونتاريو ، لكنه اشتغل أيضاً فى «**لوس ألاموس**» بالولايات المتحدة الأمريكية . واتضح أن خلية واحدة على الأقل كانت تعمل هناك . اعترف «**فوتشس**» بأنه أفشى بأسرار ذرية لوسيط يحمل

اسم «ريموند» وأنه لا يتذكر عن «ريموند» هذا إلا أنه كان بدينا ، مستدير الرأس ، فى منتصف العمر ، وأنهما التقيا فى عدة مدن مختلفة متباعدة ، مثل «**سانتا ـ فى**» ، و«**نيويورك**» ، وكان «ريموند» يحمل قفازا بنى اللون وكتابا بغلاف أخضر.

كان «ريموند» محور الخلية الوحيد ، لذا كان اختفاء أثره أمراً حيوياً . وهنا واجه مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكى مهمة صعبة . بدأوا بتمشيط سجلات الفنادق فى المدن التى كانت ملتقى الجواسيس فى ليالى معينة . فرزوا آلاف الأوصاف بحثا عن شبيه لريموند ، وبدأت القوائم تتناقص شيئا فشيئاً .

حدثت إحدى المقابلات فى «**بوسطن**» حيث تعيش أخت «فوتشس». وأثناء الحديث معها قدمت خيطاً جديداً، إذا تذكرت أن الوسيط تحدث عن الكيمياء حديث متخصص . وتذكر زوجها مفتاحا هاما آخر ، وقال إن الرجل ذكر شيئاً عن «**فيلاديلفيا**» . ضاقت الشبكة ، وحملت الطائرة إلى بريطانيا صور المشتبه فيهم للتعرف على الوسيط ، حيث أودع «فوتشس» السجن .

فى مايو ١٩٥٠م ، فتش اثنان من رجال المخابرات الأمريكية بيت كيميائى فى «فيلاديلفيا» اسمه «**هارى جولد**» ، مدرج فى قوائم المشبوهين . خضع للاستجواب أربعة أيام ، أصر خلالها على أنه برئ ، وأنه ليس جاسوساً . وكان يتساءل دائما : كيف أقابل فوتشس فى كل هذه الأماكن ، مع أنى لم أعبر المسيسيبى غربا طوال حياتى؟ .. وأثناء تفتيش بيته ، وجد أحدهما خريطة شارع فى مدينة «سانتا ـ فى» ، ولما واجه بها «جولد» انهار واعترف ، وأرشد عن أعضاء الخلية ، فسقطوا الواحد تلو الآخر، ما عدا «رودولف آبل» الذى فر ، وظل يعمل إلى أن قبض عليه عام ١٩٥٧م .

رودلف أبل هرب حتى عام ١٩٥٧

★ ويتاكر شامبرز

فى صباح يوم من أيام ربيع عام ١٩٣٩م ، وفى إحدى غرف فندق بمدينة نيويورك ، حدث لقاء أثبتت الأيام أنه أخطر اجتماع فى الجاسوسية الحديثة ، بين رجلين ، صمما على إصابة المخابرات السوفيتية بخسارة قاسية.

كان الرجلان متناقضان إلى أبعد الحدود : أحدهما بدين قصير أشعث ، أسنانه سيئة ، اسمه «**ويتاكر شامبرز**» ، يعمل محررا فى مجلة «تايم» . والآخر مواطن سابق للاتحاد السوفيتى ، أجنبى مقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية ، اسمه «**شيمكا جينزبيرج**» ، واسمه المستعار الذى يستخدمه منذ عدة سنوات «**والتر كريفيتسكى**» كان ضئيل الجسم أنيقاً رشيقاً .

على الرغم من تناقضهما ، إلا أنهما يشتركان فى ماضيهما العام ، إذ كانا جاسوسين سابقين . كان «**شامبرز**» آنذاك ٣٨ سنة ، شيوعياً أمريكياً انضم إلى الحزب عام ١٩٢٤م ، وبعد ثمان سنوات اختير للجهاز السرى التابع للحزب ، وكان الجهاز يجند الشيوعيين البارزين ، ويجردهم رسميا من عضوية الحزب ، ويكلفهم بعمليات تجسس مختلفة لحساب المخابرات السوفيتية . وفى عام ١٩٣٣م سافر «شامبرز» سرا إلى موسكو للتدريب على الجاسوسية ، ولما عاد إلى أمريكا كلف بالعمل رسولا لعدة خلايا شيوعية تعمل فى مواقع بحكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، تزود الحزب بالمعلومات . لكنه سئم الشيوعية فانقطع عن كل من الحزب ، والعمل السرى ، عام ١٩٣٧م .

ويتاكر شامبرز

أما «كريفيتسكى» فكان عمره ٤١ سنة عندما انضم إلى المخابرات السوفيتية عام ١٩٢٣م ، ولما تغيرت إدارة المخابرات السوفيتية عام ١٩٣٦م نقل للعمل فى «**لاهاى**» ، مسئولاً عن التنسيق بين عمليات المخابرات السوفيتية فى غرب أوروبا .. وفى عام ١٩٣٨م حينما قتل رفيقه فى العمل وصديق العمر «**إجناس يوريتسكى**» فى مذبحة ستالين لتصفية الوكلاء اليهود ، لجأ

«كريفيتسكى» إلى فرنسا ، ثم واصل رحيله إلى كندا ، واتصل بمكتب التحقيقات الفيدرالية ، فأعطوه ملاذا فى الولايات المتحدة الأمريكية . وهكذا تحرر «كريفيتسكى» نهائيا من أوهام الشيوعية، وعزم على الانتقام لأصدقائه ضحايا المخابرات السوفيتية .

انضم «شامبرز» إلى «كريفيتسكى» وشاركه فى هذا العزم . واتفقا فى ذلك اليوم من أيام الربيع على فضح عمق اختراق المخابرات السوفيتية لديمقراطيات الغرب . لكن سرعان ما اكتشف الرجلان أن المهمة ليست سهلة ، لأن الاتحاد السوفيتى احتاط لاحتمال حدوث تلك المحاولة .

فى أواخر عام ١٩٣٩م اتصل «شامبرز» بمساعد وزير الخارجية «**أدولف بيرل**» ، وأخبره عن اختراق المخابرات السوفيتية لوزارته ، لكنه ـ على ما يبدو ـ أراد أن يحتفظ بأسماء الأشخاص الذين يعرف أنهم كانوا أعضاء فى خلايا شيوعية ويعملون لحساب المخابرات السوفيتية . وبالطبع : لا قيمة لتأكيدات «شامبرز» بدون أسماء ، وبالتالى قرر البيت الأبيض فى عهد «**روزفيلت**» تجاهل الموضوع برمته . وفى عام ١٩٤٢ ، كرر «شامبرز» ذكر أسماء العملاء ، حينما اتصل بمكتب المخابرات الفيدرالية .

لكن مكتب المخابرات الفيدرالية كان على الدرب . كان «**كريفيتسكى**» قد حذرهم ، وقال لهم إنه سمع أن للمخابرات السوفيتية ٦١ عميلا فى بريطانيا أرسله مكتب المخابرات الفيدرالية إلى لندن ، ليتحدث مع المخابرات البريطانية نتيجة لذلك ، استطاع «كريفيتسكى» أن يحدد عميلين هامين للمخابرات السوفيتية : «**جون هيربيرت كينج**» كاتب شفرة فى وزارة الخارجية ، و «تايلر كينت» كاتب شفرة فى الشعبة الأمريكية ، كان يزود المخابرات الأمريكية ـ أيضا ـ بمعلومات .

كان «كريفيتسكى» معنياً أكثر بفضح الخونة البريطانيين الكبار العاملين لحساب روسيا . كان لديه أدلة تدين «**هـ.ر. فيلبى**» ، و «**دونالد ماكلين**» ، وغيرهما ، لكن السلطات البريطانية لم تهتم ببلاغاته . وفشل أيضا فى إقناع الولايات المتحدة بالتحقيق فى بلاغاته ، فدفعه اليأس والإحباط إلى الانتحار عام ١٩٤١م .

احتار مكتب المخابرات الأمريكية الفيدرالية فى أمر امتناع «شامبرز» عن ذكر

أسماء العملاء . كان قد اعترف بأنه خدم كرسول للخلايا السوفيتية العاملة داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن ثم فهو يعرف أسماء كل العملاء . لذا شك مكتب المخابرات الأمريكية الفيدرالية فى أن «شامبرز» كان يتستر على صديق عزيز .

لم تتأكد هذه الشكوك إلا فى أغسطس ١٩٤٨م ، مثل «شامبرز» أمام لجنة مختصة بنظر الأنشطة المضادة لأمريكا ، وألقى قنبلة كان لها أثر مدوٍ ، إذ صرح بأن صديقه القديم «**ألجر هيس**» ، واحد من عملاء المخابرات السوفيتية ، الذين تسلم منهم معلومات . كان التصريح مذهلا ، لأن «هيس» كان كبير موظفى شعبة الشرق الأقصى فى وزارة الخارجية حتى عام ١٩٤٤م وأصبح بعدها أحد أعمدة السياسة الأمريكية الخارجية .

لما علم «هيس» بالدعوى ، طلب من لجنة التحقيق عقد جلسة علنية ، وأنكر الاتهام . أصر على أنه لا يعرف «شامبرز» ، ولم يقابله أبداً ، حينئذ واجهت اللجنة مأزقا : بدا من الصعب تصديق أن «شامبرز» يغامر بتعريض نفسه لتهمة الحلف كذبا ، بتلفيق تهمة ضد هيس ، لكن من ناحية أخرى كان إنكار «هيس» بادى الصدق والصراحة ، فمن الصعب تصديق أن من كان فى مركز مرموق مثله يمكن أن يكذب .

وعلى الرغم من أن «هيس» استطاع أن يقنع الجميع بصدقه ، إلا أن عضوا واحداً دون أعضاء اللجنة جميعاً ، كان واثقاً من كذب «هيس» . ذلك العضو هو «ريتشارد نيكسون» عضو الكونجرس عن «**كاليفورنيا**» آنذاك ولكى يثبت صحة رأيه، طلب من «شامبرز» الحضور إلى اللجنة ، وسرد كل التفاصيل التى يستطيع تذكرها خلال الثلاثينات ، عن علاقته«بهيس» وطلب من «هيس» أن يحضر جلسة مماثلة ، ويروى تفاصيل حياته فى نفس الفترة . تناغمت تفاصيل الروايتين . وأتضح أن «شامبرز» عرف «هيس» تماما ، وبدأ هيس يرتبك عليه القول ، وأخيرا قال إنه تذكر أنه عرف رجلا اسمه «**چورچ كروسلى**» يشبه «شامبرز» .

ظل الإثبات مشكلة ، فقد ذكر «شامبرز» أن «هيس» أعطاه وثائق رسمية لينقلها إلى المخابرات السوفيتية ، وأن «شامبرز» صورها ، وأعاد الأصل إلى «هيس» ، لكن كلامه هذا لم يكن مدعما بما يثبته . وبعد عدة أشهر قدم «شامبرز» الدليل . وهو عبارة عن مخبأ لوثائق مسجلة على «**ميكروفيلم**» ، والأغرب من ذلك أن بعض

تلك الأفلام كانت مخبأة فى يقطينة فى مخزن بمزرعته ، وتحتوى بعض الأفلام على صور ملاحظات مكتوبة بخط «هيس» ، ومواد ثبت فيما بعد أنه طبعت بآلة كاتبة كانت تملكها زوجة «هيس» .

أخيرا ، أدين «هيس» بحلف اليمين كاذبا ، لكن القضية امتدت إلى أبعد من ذلك . فقد صنعت هذه الواقعة بداية العمل السياسى لـ«**ريتشارد نيكسون**» ، وأثارت حنق الشعب على الشيوعية ، لم تكن النتائج تتفق مع رغبة «شامبرز» ، لكن ما من أحد استطاع التنبؤ بالانفجار الذى دبره يوم اجتمع بـ«**والتر كريفيتسكى**» ظل حتى وفاته عام ١٩٦١م ، راضيا عن نجاحه فى كشف عدد كبير من خلايا الشيوعيين الأمريكيين ، الذين يعملون فى الدوائر الحكومية . فضح أمر أكثر من ٤٠ عميلا من عملاء المخابرات السوفيتية . وحتى ذلك اليوم لم يتأكد أحد من أبعاد خدماتهم للاتحاد السوفيتى ، لكن المعروف أن ثلاثة منهم على الأقل اشتغلوا فى مكتب الخدمات الاستراتيجية خلال سنى الحرب ، عدا «**لاشلين كورى**» الذى شغل منصب مستشار الرئيس الأمريكى «**روزفيلت**» .

الأكثر من ذلك أن «شامبرز» يمكن اعتباره الأب الأمريكى لحركة المحافظين ، لأن حملته كانت تهدف إلى صبغ جيل بأكمله بالصبغة المحافظة ، ومن بينهم الرئيس «**رونالد ريجن**» ، الذى كان آنذاك رئيسا لنقابة ممثلى السنيما ، والذى بدأ فى عام ١٩٥٠م تطهير تلك المنظمة من الشيوعيين وبعد ٣٦ سنة من هذا التاريخ قرر الرئيس الأمريكى «رونالد ريجن» منح روح « **ويتاكر شامبرز** » ميدالية الحرية ، وهى أسمى وسام مدنى .

★ روث كوزينسكى ورحلة بلا عودة

ذات صباح من ربيع عام ١٩٤١م ، وقف شرطيان أمام كوخ متوسط الحال قرب بلدة جامعة «**اكسفورد**» ، وطرق أحدهما الباب ، وهما متأكدان من أنهما يطاردان قطا بريا له خطره . لقد تسلما بلاغا من تلك البلاغات التى كانت شائعة فى أيام الحرب ، عن وجود جواسيس أعداء . وكان المواطنون يقدمون هذه البلاغات عند أقل شبهة .

لم يكن الكوخ يشبه فى شئ عرين الجواسيس . استأجره عريف فى سلاح الطيران الملكى البريطانى اسمه «**ليون بورتون**» ، وزوجته «**روث**» ، ومعهما طفلان

صغيران . كان الجار قد أبلغ الشرطة أنه رأى جهاز راديو قصير الموجات فى الكوخ. والقانون يحتم على أصحاب تلك الأجهزة تسجيلها رسميا لدى السلطات فى زمن الحرب . لكن الشرطيان وجدا أن مثل هذه العريف ضئيل الأجر ، لا يمكن أن يمتلك مثل هذه القطعة التكنولوجية الثمينة .

أجابت طرق الباب سيدة قصيرة ، بدينة ، ترتدى مريلة ، وعلى إحدى ركبتيها طفل تهدهده ، تحملق بعينين واسعتين فى الشرطيين ، وأدهش «روث» ما قاله الرجلان ، فدعتهما إلى الدخول بلهجة أوروبية غليظة ، وعرضت عليهما راديو لعبة طفل قائلة : «هل يمكن أن يكون ذلك الراديو ذا الموجة القصيرة الذى رآه الجار؟» .

ابتسم الشرطيان ، وقالا : «ربما!!» . قدمَا اعتذاراً للسيدة ، وانصرفا ومر وقت طويل قبل أن يتذكرا أنهما تواجدا ذات مرة فى مكان واحد مع أذكى جواسيس الاتحاد السوفيتى فى بريطانيا . وكالمعتاد ، لعبت «**روث كوزينسكى**» دورها كاملا. بمظهرها الرث ، كأم منهكة للأطفال صغار ، غفر الشرطيان لنفسيهما لعدم التدقيق فى التفتيش . ولم تكن المرة الأخيرة التى خدعت فيها هذه الممثلة أعداءها.

تحت مظهرها كانت «كوزينسكى» تخفى شخصية كرست حياتها تماما للشيوعية ، وكانت قد ولدت بين عائلة شيوعية جداً . أبوها «رين» اقتصادى مرموق ، من أوائل أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى ، وكذلك كان أخوها «جورجين» . انضمت «روث» إلى حركة شباب الحزب عام ١٩١٧ عندما بلغت التاسعة من عمرها . وفى عام ١٩٢٦ انضمت إلى الحزب يافعة ، وفى السنة نفسها ذهبت إلى نيويورك لتدير مكتبه ، والتقت بـ«**رودلف همبورجر**» الذى كان يدرس الهندسة فى الولايات المتحدة الأمريكية . وربط بينهما الحب فتزوجا ، ولحقت به فى «**شنغهاى**» عام ١٩٣٠ ، حيث اشتغل مهندسا .

لم يكن «همبورجر» شيوعيا . تجاوز عن معتقدات زوجته السياسية ، لكنه أعلن اعتراضه على إفصاحها عن عزمها على مزاولة العمل الحزبى فى المهجر «شنغهاى» . لم يكن متأكدا من معنى ذلك ، لكنه رفض فكرة قيام زوجة ألمانية تقدس واجبها ، بالمشى فى المظاهرات ، والتحرش برجال الشرطة، وإقامة المتاريس ،

والهتاف بالشعارات .. تجاهلت «روث» اعتراضه ، وسرعان ما انشغلت بالعمل مع منظمة العمال الأجانب فى المدينة . ولم يمض وقت طويل حتى صارت شخصية مرموقة فى عالم الشيوعية الخفى ، واشتهرت بذكائها ، وإمكانياتها اللغوية ، إذ كانت تتقن أربع لغات بطلاقة ، كما كانت شجاعة جداً . وكانت من ذلك النوع الذى لا تخطئه عيون مجندى الجواسيس . وفى أواخر عام ١٩٣٣م رشحها «**ريتشارد سورج**» للمخابرات السوفيتية ، وكان آنذاك يقيم فى الصين .

تنبأ لها «سورج» بمستقبل باهر فى عالم الجاسوسية ، وأرسلها إلى موسكو للتدريب على الشفرة والاتصال اللاسلكى ، فأثبتت أنها تلميذة نجيبة ، ولما عادت إلى الصين بعد عام ، كلفها «سورج» بمسئوليات متزايدة ، وأسند إليها إدارة مختلف الخلايا .

فى عام ١٩٣٥م تلقت «**كوزينسكى**» أمرا من المخابرات السوفيتية بأن تطلق زوجها «المتعب» «**رودولف همبورجر**» أطاعت الأمر ونفذته ، ثم تزوجت عميلا سوفيتيا اسمه «**ألفريد شولتز**» ، يعمل فى الصين أيضا . اختفى «شولتز» بعد عامين فى حملة التطهير التى شنها «**ستالين**» ، وأخطرت زوجته بأن زوجها الثانى كان خائنا ، فأجابت بهدوء أن إعدامه كان عدلا . وصارت بعدها أرملة تعول طفلا يتيما .

أصبح لكوزينسكى رصيداً كبيراً من الإنجازات لدى المخابرات السوفيتية التى أعدت لها خططا مهمة . كانت موسكو تنظم سلسلة من الشبكات فى أوروبا موجهة نحو ألمانيا النازية ، سميت «**الأوركسترا الأحمر**» . ورسمت المخابرات السوفيتية لكوزينسكى أن تلعب فيها دورا رئيسيا . أرسلوها إلى «**وانزيج**» لتنشيط مهاراتها ، وأرسلوها عام ١٩٣٨م مكلفة بإيجاد عملاء بين الجنود البريطانيين الشيوعيين الذين حاربوا ضمن الحرب الأهلية الإسبانية . وهناك جندت «الكزاندر فوت» الذى قاتل فى الحرب ، وأظهر مهارة ملحوظة فى تشغيل اللاسلكى ، وانضم فيما بعد إلى حلقة فى المخابرات السوفيتية بسويسرا ، سماها الألمان «**الثلاثة الحمر**» .

مهمة «كوزينسكى» التالية غاية التحدى . تلقت أمرا بالذهاب إلى بريطانيا لإنشاء فرع بريطانى «للأوركسترا الأحمر» . ولأنها مواطنة ألمانية ، لا تستطيع

دخول بريطانيا بدون جواز سفر . لكن حكومة النازى لا تصرف جوازات لشيوعية . حلت «كوزينسكى» المشكلة بأن عرضت على عدد من الشيوعيين البريطانيين الزواج فى سويسرا حتى تحصل على الجنسية البريطانية بالزواج . اعتذر «**فوت**» ، ووافق «ليون بورتون» وهو شاب شيوعى اشترك فى الحرب الأهلية الإسبانية . وفى عام ١٩٤٠م استقرت مع زوجها فى بلدة «**كيدينجتون**» قرب «**اكسفورد**» ، واستدعى «بورتون» لخدمة سلاح الطيران الملكى البريطانى . أمرتها المخابرات السوفيتية بالتزام الراحة إلى حين .

كانت آنذاك تربى طفلا من زوجها السابق «شولتز» ، وأنجبت طفلا آخر لم تتوقعه من «بورتون» . أصبح لديها طفلان صغيران يحتاجان إلى رعايتها . فلما جاءتها الأوامر فى مايو ١٩٤١م باستئناف الحركة ، كان عليها أن تنفذ الأمر بالإضافة إلى أعبائها الأسرية . نجحت عن جدارة . بدأت تنشئ شبكة جاسوسية من عائلتها التى هربت إلى بريطانيا بعد أن استولى «هتلر» على السلطة . كانت العائلة بأسرها مستعدة لتلبية نداء الواجب كشيوعيين مخلصين . يعمل أبوها الآن مدرس اقتصاد فى اكسفورد ، وأصبحت له علاقات كثيرة بالمجتمع البريطانى ، فبدأ يجمع معلومات سياسية عالية المستوى . وأخوها «جيورجين» يعمل محللا اقتصاديا فى وزارة الطيران البريطانية كان يحصل على معلومات عسكرية بالغة الأهمية ولما دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب ، التحق بمكتب الخدمات الاستراتيجية ، واستطاع أن يحصل على معلومات أكثر أهمية . وقرب بيتها عرفها زوجها بضابط كبير فى سلاح الطيران الملكى يعتنق الشيوعية سرا ، ويزودها بعينات من آخر تكنولوچيات الطيران البريطانى ، مشفوعة بتقارير فنية ، رتبت «روث» أمر إرسالها إلى موسكو .

ومن بلدتها اتصلت «روث» بأعضاء الحزب الشيوعى الألمانى المنفيين فى بريطانيا . اكتشفت أنهم مخلصون لمبادئهم ، وأنهم يواصلون دفع التزاماتهم المالية للحزب ، ويعقدون اجتماعات الخلايا بانتظام . بعد الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفيتى فى يونيه ١٩٤١م أصبحوا متلهفين لمساعدة موسكو ، ونظمتهم «روث» فى شبكةعلماء ذات درجات تبعا لمقدار الفائدة ، فازداد عطاؤهم .

فى أواخر عام ١٩٤١م قابلت «روث» عالما ألمانيا شابا هاجر من ألمانيا عام

١٩٣٣م ، عندما استولى «هتلر» على الحكم . واصل الشاب حضور اجتماعات الحزب فى المنفى ، وأخبر «روث» أنه شغوف بمساعدة الاتحاد السوفيتى بأى طريقة، ولم يكن فى حالة تسمح له بتقديم الكثير . بعد اعتقاله لمدة عام فى معسكر اعتقال فى بداية الحرب ، جنده البريطانيون للعمل فيما يسمى « **مشروع خلط الأنابيب**» . لاحظ الشاب أن «روث» لم تهتم بقوله ، فأخبرها أن اسم المشروع كان غطاء لأعظم سر فنى تنجزه بريطانيا وأمريكا ، وهو صنع قنبلة ذرية . وسألها عما إذا كان ذلك يهم روسيا؟ .

لاشك فى ذلك . وهكذا أصبح «فوتشس» نجما لامعا فى شبكة «كوزينسكى». وأصبحت هى وجها لوجه أمام مشكلة إرسال كل هذه المعلومات إلى محطة المخابرات السوفيتية الرئيسية فى السفارة الروسية بلندن . يمكن إرسال كثير من المعلومات التى تجمعها عن طريق وسيط ، لكن المعلومات العاجلة ينبغى إرسالها باللاسلكى . إذن فهى محتاجة إلى جهاز إرسال ، وهذا ليس أمرا سهلا فى زمن الحرب . كررت السفر بالقطار مع ابنها عدة مرات خلال عدة أسابيع . ظهرت مع الطفل عدة مرات حتى صار منظرهما مألوفا والطفل يحتضن دميته الدب الكبير . وفى إحدى المرات قابلت «روث» عميل المخابرات السوفيتية فى لقاء خاطف ، وناولها لفافة ، أخرجت منها أجزاء الراديو ، وأخفتها داخل الدمية ، وعادت إلى بيتها فى أكسفورد بالقطار .

بدأت «روث» بث المعلومات بحذر شديد . وعمدت إلى تقصير الإشارات ، عن علم بأن جهاز مقاومة الجاسوسية البريطانى يقظ ، بتصيد أى إشارة راديو . وزيادة فى التمويه طلبت من جارها مساعدتها فى تثبيت حبل الغسيل ، الذى لم يكن سوى هوائى الراديو . فى ظل الحرص والحذر ظلت فى مأمن من الانكشاف، رغم كثرة المواد التى أرسلتها إلى موسكو خلال الحرب . بل استطاعت أن تنجو من تطور كاد يودى بها . فى عام ١٩٤٥م تم القبض على «فوتشس» فى بريطانيا بتهمة التجسس ، واعترف لكنه تجنب الإشارة إلى روث «كوزينسكى» فى اعترافاته، فنجت .

بعد عامين ، فى عام ١٩٤٧م أفشى سرها «**الكزاندر فوت**» ، الشيوعى البريطانى الذى ضمته قبل عشر سنوات . كشف للبريطانيين عن كل عملاء

السوفييت الذين اتصل بهم ، بما فيهم «كوزينسكى» ، وزعم أنها كفت عن العمل للمخابرات السوفيتية منذ عام ١٩٤٠م . ولأسباب لم يوضحها ذكر ذلك ليحميها بطريقة ما . وقد كان : ظهر رجال مقاومة الجاسوسية البريطانية ببابها ، وبدأوا توجيه أسئلة عن علاقتها بالمخابرات السوفيتية ، فاستعرضت بعض ردود الفعل الساذجة ، فانصرفوا يتساءلون عما إذا كان «فوت» مخطئا . لم يصدقوا أن مثل هذه السيدة البدينة القصيرة ذات العينين الواسعتين البريئتين يمكن أن تكون لديها أى فكرة عن أشياء شريرة مثل التجسس ، ولا حتى قبل عام ١٩٤٠م .

قبل أن تفكر المخابرات البريطانية فيما عساها تكون الخطوة التالية ، أدركت كوزينسكى أن دورها قد انتهى ، فرحلت مع زوجها وطفليها إلى ألمانيا فيما قالت إنها رحلة لزيارة أقاربها ، لكنهم لم يعودوا ، ولم يرهم أحد. اختفوا فى ألمانيا الشرقية ، ومن ورائهم العائلة .

لم تأسف المخابرات البريطانية على اختفاء «روث» ، معتقدين أنها ـ على الأكثر ـ عميلة متدنية المستوى لسنوات خلت ، لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون قد خدشت أمن بريطانيا ، خصوصاً وأنها لم تصل إلى بريطانيا إلا فى عام ١٩٣٩م ، وكانت الصدمة قاسية حينما اكتشفوا فى عام ١٩٥٩م أن سيلا لا ينقطع من المعلومات تدفق من السفارة الروسية فى لندن إلى موسكو ، وأن رئيسة الشبكة التى كانت تجمع هذه المعلومات خلال سنى الحرب تحمل اسما شفريا هو «**سونيا**» وسرعان ما أسفر البحث عن أن «سونيا» هى ذاتها «**روث كوزينسكى**» ، ربة البيت القصيرة ، البدينة ، ذات العيون الواسعة البريئة ، التى خدعتهم قبل سنوات .

استقرت «كوزينسكى» فى ألمانيا الشرقية مواطنة ملتزمة تدين بالولاء للنظام القائم ، عينوها بوظيفة لا علاقة لها بالجاسوسية . ولما تقاعدت عام ١٩٨٢م تفرغت لكتابة مذكراتها ، التى صدرها مدير المخابرات السوفيتية بكلمة قال فيها : «لو كان لدينا خمس نساء مثل سونيا لانتهت الحرب فى وقت أسرع» .

★ إيجور جوزينكو الرجل الأول

روسى ، عمره ٢٦ سنة ، اسماه الحركيان « **كوربى** » ، أو « **كلارك** » . واسمه المستعار «**ريتشارد براون**» . وصل إلى كندا حديثا ، وقال إنه لم ير شيئا مثلها .

قطع قصاصة القصة القصيرة من جريدة «أوتاوا» المحلية وعرض القصاصة على كل زملاء العمل ، وسألهم : «أليست هذه أغرب ما رأيتم؟» .

تروى القصة حادثا روتينيا فى مدينة «أوتاوا» ، بشأن تاجر فاكهة يونانى،كان يقاضى بلدية المدينة على إنشاء طريق بأسلوب يفسد تجارته . قرأها «**إيجوز جوزينكو**» مرارا ، وكلما كرر قراءتها كلما ازدادت دهشته ، لأن فكرة مقاضاة مواطن سوفيتى مخلص عادى للحكومة كانت خارج نطاق التصديق .

كانت قصة تاجر الفاكهة أول دروس الحياة الكثيرة فى الغرب التى سببت تغييرا أساسيا فى «جوزينكو» التناقض الشديد بين مستوى المعيشة بين المواطن العادى فى كندا ، والفقر الكالح الطاحن الذى يعانيه المواطن السوفيتى . وكلما شاهد جوانب حياة أخرى أكثر إشراقاً فى الغرب ، اتجه بثبات نحو رفض مبادئ الشيوعية والتحرر من أوهامها .

كان جوزينكو وكيلا للمخابرات السوفيتية ، مقره السفارة السوفيتية فى «**أوتاوا**» ، يعمل تحت وظيفة كاتب شفرة مدنى لنظام الاتصالات الدبلوماسية بالسفارة .

وصل إلى «**أوتاوا**» ـ أول وظيفة له خارج روسيا ـ فى يونيه ١٩٤٣م ، بعد التخرج من مدرسة الجاسوسية . كان جنديا يافعا فى الجيش عام ١٩٤١م ، يعمل فى الاتصالات اللاسلكية ، فلما ظهرت براعته فى التعامل بالشفرة وضعته فى مجال انتباه مطوعى الجواسيس .

كان على «جوزينكو» أن يعلم أن المخابرات السوفيتية فى مسيس الحاجة إلى خبراء شفرة ، لأن الغزو الألمانى للاتحاد السوفيتى اضطر المخابرات السوفيتية إلى تعبئة أقصى قواها ، ومن بينها مئات العملاء ، بما فيهم من شيوعيين وهبوا أنفسهم للقضية السوفيتية . وغير شيوعيين تحدوهم الرغبة فى كسر «**هتلر**» ، كانت أجهزة اللاسلكى ، وخبراء الشفرة عناصر أساسية للمخابرات فى العالم الحديث سريع الحركة ، حتى تصل الرسائل إلى موسكو فى أسرع وقت ممكن .

فى «أوتاوا» علم «جوزينكو» أن محطة المخابرات هناك أهم المخافر الأمامية فى نصف الكرة الغربى ، وبها مجسات استخبارية تصل إلى جميع أنحاء أمريكا الشمالية . لها فى كندا وحدها ٢٥ موقعاً لعملاء اختيرت أماكنها بعناية . لكن

«أوتاوا» تمثل شيئاً آخر «لجوزينكو» ، وهـو ابـن أب وأم فقيرين ، فهو كالطفل اليتيم إذا دخل بيت رجل ثرى ، من الصعب عليه أن يفهم أو يصدق أن مثل هذه المدينة الأسطورية لها وجود . حال وصوله إلى «أوتـاوا» من «موسـكو» التى يكاد سكانها يتضورون جوعا بسبب الحرب ، استبدت به الدهشة حينما رأى أهل «أوتاوا» يجدون فى كل اللحظة ما يكفى ويفيض من صنوف الطعام ، رغم قيود الحـرب . وكـانوا ـ عـلاوة على ذلك ـ أحـرارا بشكل لا يمكن أن يدركـه أى مواطن فى روسيا الستالينية . فالناس يستطيعون التعبير عما فى أذهانهم علنا ، ولا حرج إذا وجهوا النقد إلى الحكومة .

كان ينتاب «**جوزينكو**» شعور غامض بالخوف من التجول فى «**أوتاوا**» ليتذوق نسيم الحرية ثم التحدث إلى رفاقه عنه ، كان يشعر بأن هذا عمل خطير جدا ، لأن جوزينكو كـان كـاتب شـفـرة ، وهذا يعنى أنه يعرف كل الأسرار التى وردت إلى السفارة أو صدرت منها . سبب آخر هو أن جنون الارتياب الستالينى كان يحكم المخابرات السوفيتية ، وتفشى فى محاطتها داخل المبانى ، لدرجة أن عددا كبيرا من رجال المخابرات الذين يزيد عددهم على ١٠٠ فى المحطة ، مكلفون بوظيفة محددة، هى مراقبة زملائهم الآخرين ، وتسجيل أى إشارة تدل على ضعف الولاء .

ولابد أن شخصا ما من السفارة أبلغ عن «جوزينكو» ، لأنه استلم فى سبتمبر ١٩٤٤م استدعاء رهيبا للعودة إلى «موسكو» لمناقشة أمر غير محدد . كان قد اشتغل فى المخابرات السوفيتية طويلا بما يكفى لمعرفة معنى الرسالة . عرف أنه فى مأزق خطير . قد يكون محاصرا بالشك فى انحرافه نحو الأيدولوجية الغربية . بل إن هناك خطراً أعظم ، فقد سمع «جوزينكو» همسا أحيانا يدور بين زملائه عن أمر غريب تتبعه المخابرات السوفيتية مع كتبة الشفرة . يقول الهمس إن لدى موسكو عادة استدعاء كتبة الشفرة الذين اشتغلوا مددا طويلة فى سفارات حساسة ، ومن ثم يختفون بمجرد عودتهم إلى «موسكو» . ويقال إن المخابرات السوفيتية تتخلص من كتبة الشفرة على فترات منتظمة ، واستبدالهم برجال جدد ، والسبب فى غاية البساطة وهو أنهم عرفوا الكثير من الأسرار . وموسكو لا تريد أن تنال لطمة من كاتب شفرة يرتد ، أو يتحول إلى الأعداء ، فيكشف ما رآه وما سمعه من أسرار روسيا ، بما فيها الأعمال غير القانونية التى تؤديها السفارة ، والعملاء الذين يعملون تحت إشراف وكلاء المخابرات السوفيتية .

أيا كانت حقيقة الشائعات ، فإن رؤساء «جوزينكو» فى محطة «أوتاوا» أنقذوه باعتراضهم على عودته إلى موسكو ، بحجة أن مهارته لا يمكن تعويضها أو استبدالها فى تلك اللحظة الحساسة . واستجابت موسكو للطلب فى ذلك الوقت على الأقل .

لم يكن رؤساء جوزينكو فى محطة «أوتاوا» يبالغون حينما قالوا : «**اللحظة الحساسة**» . لأن محطة أوتاوا كانت قد نقلت كل ثقلها إلى مهمة أخرى . كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى تشتركان فى مشروع سرى للغاية ، وهو صنع قنبلة ذرية . وهو سر حجبوه عن روسيا . وصدرت الأوامر إلى المخابرات السوفيتية بكشف النقاب عن المشروع بأى ثمن . لم يكن «**ستالين**» يترك حلفاءه يصنعون سلاحا يسمح لهم بالسيطرة على عالم ما بعد الحرب .

خصصت المخابرات السوفيتية لهذا الهدف عملية أسمتها «**عملية كاندى**» ، وركزت الكثير من جهودها على «كندا» ، حيث يحاول فريق من العلماء التغلب على مشاكل إنتاج يورانيوم قابل للإنشطار . قام «جوزينكو» بدوره فى بث رسائل المخابرات السوفيتية إلى شبكة اتصالاته اللاسلكية ، تطلب من العملاء الحصول على أى معلومات ممكنة عن مشروع القنبلة الذرية . بعد عدة أشهر اتضح له أن المخابرات السوفيتية نجحت أيما نجاح . بدأ يبث مجلدات من معلومات فنية ، يبدو أنها مستقاة بطريق مباشر من عملاء يعملون فى برنامج القنبلة الذرية . ذكر «جوزينكو» أن العميل الرئيسى كان رجلا اسمه الشفرى «**اليكس**» . ويبدو أنه كان واحدا من العلماء الذين يعملون فى البرنامج .

فى أوائل صيف عام ١٩٤٥م بث «جوزينكو» تقريراً من رئيسه الكولونيل «**نيكولاى زابوتين**» ـ واسمه الشفرى «**جرانت**» ـ يشير إلى أن المخابرات السوفيتية قد اخترقت البرنامج الأمريكى حتى النهاية . «زابوتين» لم يقتصر على تزويد موسكو بتفاصيل ما يجرى فى «**لوس ألاموس**» بنيومكسيكو ، المركز الرئيسى لتطوير القنبلة الذرية . ولكنه عرف أيضا التاريخ المحدد للتجربة الأولى ، والتفاصيل الفنية لكيفية صنعها ، والأثمن من ذلك كله أنه حصل على عينة من اليورانيوم المخصب «**يو ـ ٢٣٥**» ، من «**اليكس**» . وأرسلت طائرة خاصة من موسكو لنقل العينة إلى الاتحاد السوفيتى ، حيث استخدمت فى تطوير برنامج الأسلحة النووية السوفيتية .

وتدفقت المكافآت ، ومنح التكريم ، والترقيات على محطة المخابرات السوفيتية فى «أوتاوا» ، جزاء على جاسوسيتها البطولية ، لكن «إيجور جوزينكو» لم يكن بين المكرمين ، أيقن أنه ما يزال موضع شبهة ، وأن وقتا طويلا لن يمر قبل أن تعيد موسكو موضوع استدعائه للعودة إلى أرض الوطن ، مع احتمال قوى بتسديد رصاصة إلى رأسه .

قرر «جوزينكو» الهرب ، لكنه فكر فى أن السلطات الكندية قد تسلمه إلى روسيا ، طالما أن كندا والاتحاد السوفيتى حليفتان عدل فى خطة هربه ، وقرر أن يحمل معه أكثر ما يمكن من الوثائق الخاصة بعمليات التجسس السوفيتى على كندا ، فإذا أدرك الكنديون عمق التجسس السوفيتى عليهم ، استحال تسليمه للروس .

فى مساء ٥ سبتمبر ١٩٤٥م ، أنهى «جوزينكو» عمله المعتاد فى غرفة الشفرة بالسفارة ، وغادر المبنى حاملا معه ١٠٩ برقية مرتبة فى حقيبة أوراق صغيرة . ولمعرفته بنظام الأمن الصارم فى السفارة ، عرف أن السوفيت سوف يكتشفون اختفاء البرقيات بعد ساعات لن تطول . لذا كان أمامه وقت محدود ينفذ فيه خطته.

أصاب الفزع جوزينكو حينما اكتشف أنه لم يتمكن حتى من جعل الكنديين يفهمون ما يحاول عمله . كانت مكاتب جريدة «**أوتاوا جورنال**» أول باب طرقه ، وكانت هى الجريدة التى قرأ فيها قصة تاجر الفاكهة اليونانى قبل سنوات لم يبد على محرر الجريدة أنه فهم ما كان يتحدث «جوزينكو» عنه ، وأمره بالخروج من المبنى .

زار «جوزينكو» بعد ذلك عدة مكاتب حكومية أعادته بخفى حنين ، اشتد به اليأس ، فسجن نفسه وزوجته وابنه البالغ من العمر عامين فى مسكنه . يحبس أنفاسه من الخوف . وفجأة سمع وكلاء المخابرات السوفيتية يطرقون بابه الأمامى ، يطلبون خروجه . وفى نوبة يأس روى «جوزينكو» قصته لجاره الملاصق . وهو رقيب فى سلاح الطيران الكندى ، وافق على أن يحميه ويجعل مسكنه ملاذا له ولأسرته، تحرك «جوزينكو» فى الوقت المناسب ، وما أن انتقل إلى شقة جاره ، حتى سمع أربعة من رجال المخابرات السوفيتية يحطمون الباب الخارجى لشقته ، ويدخلونها عنوة ، ويقلبون أثاثها رأسا على عقب .

أثار رجال المخابرات السوفيتية ضجة خدمت «جوزينكو» ، إذ حضر رجال الشرطة إلى المسكن ، وعرفوا أن الشخص المحاصر غير عادى ، وأن الأوراق التى يبحث عنها رجال السفارة غير عادية أيضا ، تصادف وجود الجاسوس الأسطورى «**وليم ستيفنسون**» فى كندا ، وهو كندى المولد ، يحتل منصبا خطيراً فى المخابرات البريطانية فى نيويورك . انتشر خبر الحدث الغريب الذى كانت تجرى فصوله فى السفارة السوفيتية «بأوتاوا» . وكانت تفاصيله تترى إلى جهاز الأمن الكندى أولاً بأول . حينما سمع «ستيفنسون» بعض التفاصيل الأولى ، تبين ما حدث فى الحال . وبادر باستخدام اتصالاته عالية المستوى ، فاستطاع أن يحرك فرسان الشرطة الملكية الكندية ، وخدمات الأمن التابعة لها ، لوضع «جوزينكو» وأسرته تحت جناح حمايتها . وفى الوقت نفسه كان الروس يطالبون بتسليم «جوزينكو» مدعين أنه سرق قدراً كبيراً من أموال السفارة ، وأنه لابد من نقله إلى موسكو ليواجه نتائج جريمته .

تجاهل الكنديون طلب السوفييت ، لأن المحادثات التى جرت مع «جوزينكو» والمعلومات المستقاة من برقيات غرفة الشفرة ، كشفت النقاب عن أن صيداً ثميناً قد وقع فى أيديهم ، وأن أمورا لابد أن تتخذ فى الحال ، وفى مقدمتها القبض على ٢٥ مواطنا كنديا ، أثبتت الأوراق أنهم عملاء للمخابرات السوفيتية . وترتبت على حادث هرب «جوزينكو» صدمات كبيرة ، منها إبلاغ الرئيس الأمريكى «ترومان» أن سر القنبلة الذرية الأمريكية العظيم ، الذى تمنت أمريكا أن تستطيع الاحتفاظ به عشرين سنة على الأقل قد انكشف ، وأحيطت بريطانيا علماً بأن واحداً من علمائها على الأقل كان يعمل لحساب «**روسيا**» . واتضح فعلا أنه الدكتور «**آلان نان ماى**» ، الرجل الذى يستعير اسم «أليكس» .

وبالمناسبة : حوكم دكتور «**ماى**» عام ١٩٤٦م ، وثبتت إدانته بتهمة التجسس، وصدر الحكم عليه بالسجن ١٠ سنوات . واعترف بأنه كان متعاطفا مع الشيوعيين، جندته المخابرات السوفيتية فى أوائل سنى الحرب ليزود روسيا بمعلومات التطور العلمى البريطانى ، ولعل أغرب ما فى قصة «ماى» وأسرار القنبلة الذرية ، أن مجمل ما فاز به من تقدير لجهوده من جانب المخابرات السوفيتية مبلغ ٧٠٠ دولار وزجاجتى ويسكى ، وتلك أعجب صفقة فى تاريخ الجاسوسية .

كان لموضوع «جوزينكو» وقع الصاعقة على العالم الغربى . لم تكن الحرب الباردة قد بدأت ، وكان الروس مازالوا فى حكم الحلفاء الذين ضحوا بكل شئ فى الصراع من أجل هزيمة هتلر . لكن موضوع جوزينكو كشف أكذوبة التحالف بين الشرق والغرب . الغرب يخفى أسرار الذرة عن الشرق ، والشرق يجند الجواسيس ، ويغرى مئات المواطنين بخيانة أوطانهم ، الغرب ليس أحسن حالا . لقد انكشفت أيضاً أكذوبة عدم وجود نوايا عدوانية بين الكتلتين .

أسفر موضوع «جوزينكو» عن سلسلة طويلة من محاكمات الخيانة . فقد ثبت من البرقيات التى حملها «جوزينكو» أن المخابرات السوفيتية جندت مئات العملاء للحصول على كل سر مهم فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكندا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، ودول أخرى .

كان لدى «جوزينكو» الكثير مما يقال لرجال مكافحة الجاسوسية فى دول الحلفاء الأربعة : أمريكا ، وإنجلترا ، وكندا ، وفرنسا ، عن نظام العمل وشخصيات العاملين فى المخابرات السوفيتية ، سواء فى موسكو أو خارجها ، ونوع المعاملة التى يلقاها العاملون فى الجهاز .

أخرج «جوزينكو» من جعبته أخبارا مزعجة لممثلى المخابرات الأمريكية . ذكر أن أصدقاءه فى «موسكو» أخبروه عن عميل أمريكى جندوه . وقالوا عنه إنه يشغل منصبا رفيعا فى إدارة الدولة . ولما كان «**ويتاكر شامبرز**» قد أخبر الأمريكيين أن «**ألجر هيس**» كان يتجسس لحساب روسيا ، استقر فى ذهنهم أن «جوزينكو» كان يقصد «هيس» ، وكانت لديه أخبار مزعجة للبريطانيين أيضاً . قال إنه سمع عن عميل اسمه الحركى «**إللى**» ، عرف أنه موظف كبير فى جهاز مكافحة الجاسوسية الإنجليزى . ولم يكن لديه مزيد من المعلومات لتحديد ذلك المصدر ، لكنه تذكر أن بعض موظفى المخابرات السوفيتية أشاروا إلى شئ روسى فى ماضيه . أسقط رجل المخابرات البريطانى «**روجر هوليس**» ـ الذى

روجر هوليس مدير المخابرات البريطانية

كان يستجوب «جوزينكو» ـ هذه الإشارة تجاهلها لأن «إللى» كان الاسم الحركى أيضا لواحد من العملاء الكنديين للمخابرات السوفيتية ، ولا يحتمل أن يستخدم السوفيت نفس الاسم لعميلين فى وقت واحد ومكان واحد .

بعد سنوات عديدة ، أدى حفظ موضوع «جوزينكو» بطريقة مقتضبة جافة ، إلى الشك فى أن «هوليس» نفسه كان جاسوسا للمخابرات السوفيتية وفى الوقت نفسه كان «جوزينكو» قد استقر فى كندا ، تحرسه شرطة الفرسان الكندية الملكية على مدار الساعة . حصل على هوية جديدة ، كمهاجر تشيكى اسمه «ريتشارد براون» لينسجم مع لهجته السلافية الثقيلة ، ألف كتابا عن حياته وتجاربه فى المخابرات السوفيتية ، وقصة هربه، كما ألف رواية مدحها النقاد ، عن الحياة فى الاتحاد السوفيتى ووضع على الكتابين اسمه الحقيقى .

لم تكن العلاقة دافئة بين «جوزينكو» وشرطة الفرسان الكندية الملكية . وطالما اشتكى من قلة المعاش الذى كانت تصرفه له الحكومة ، وكان محبا للمال ، يبدو كما لو كان يحلم بالثراء ويرغب فى أن يصبح رأسماليا ، وكان ذلك مستحيلا بالطبع لأنه كان مسرفا إلى حد بعيد ، مما ورطه فى ديون كثيرة أساءت إلى سمعته . وأصيب برمد عضال ساقه إلى العمى تدريجيا . وزاده إحباطا زيارة محققين بريطانيين له فى السبعينات ، وأعادوا معه مناقشة موضوع اختراق السوفييت للمخابرات البريطانية ، واستجوبوه فيما ذكره للمخابرات البريطانينة عام ١٩٤٥م .

اشتد غضبه وهو يستمع إلى الوكلاء البريطانيين وهم يقرأون تقارير المخابرات البريطانية المأخوذة عنه عام ١٩٤٥م ، لأن التقارير لا تمت بصلة لأقواله السابقة ، خاصة تحذيره من وجود خائن بريطانى ذى رتبة كبيرة فى صفوف المخابرات البريطانية يتجسس لصالح روسيا .

توفى «جوزينكو» فى يونيه ١٩٨٢م ، وحضر جنازته عدد قليل من أصدقائه المقربين ، وتبعا للعادة الروسية القديمة ، اصطفوا أمام التابوت واحدا تلو الآخر ، ينحنون ويقبلون الجثمان . ووصف المتوفى بأنه : «السيد براون ، القادم إلينا من براغ» .

★ كلاوس فوتشس سارق القنبلة الذرية

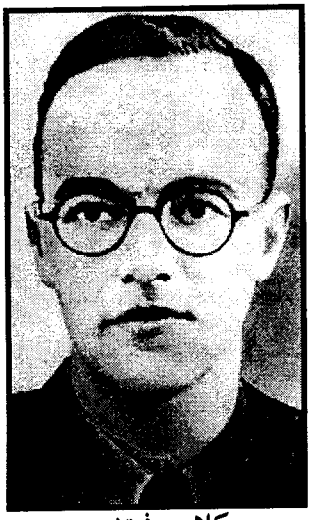
كلاوس فوتشس

كان «**كلاوس فوتشس**» أقرب الشبه إلى لوحة كاريكاتيرية ، منه إلى عالم ذرة.. طويل ، نحيل ، بعوينات دقيقة الإطار ، جبهته عالية عريضة ، ينطق الإنجليزية بلهجة ألمانية . هكذا كان فى نظر المحقق «**وليم سكاردون**» ، الذى يعتبر أبرع مستجوبى المخابرات البريطانية ، والذى كان يواجه فى ذلك اليوم من أيام يناير ١٩٥٠م تحديا كبيرا ، وهو يحاصر «كلاوس» بأسئلته ، واثقا من أنه جاسوس سوفيتى . وأن عليه أن يدفعه إلى الاعتراف بهذه الحقيقة التى تعرفها المخابرات البريطانية والأمريكية .

لقد سرق «كلاوس فوتشس» برنامج إنتاج القنبلة الذرية ، وسربه إلى المخابرات السوفيتية ، وعلى الرغم من أن مخابرات الغرب كانت على يقين من ذلك ، إلا أنهم لم يجرؤا على الإفصاح عن مصدر المعلومة فى قضية تجسس ، لأن محاكمة «فوتشس» على أساس ذكر هذا المصدر ، تكشف سراً خطيراً من أسرار مخابرات الغرب . فلا مناص إذن من الاعتماد الكلى على براعة «سكاردون» فى الاستجواب. وقد كان أن ركز على محاولة إقناع «فوتشس» بأنه يعتقد أن شيوع معرفة أسرار صناعة القنبلة الذرية ، يؤدى إلى توازن القوى ، ومن ثم يرجح احتمالات السلام العالمى ، وتلك نظرية لها احترامها .

وقال «سكاردون» فى نبرة أبوية إنه متعاطف مع معتنقى هذه النظرية ، ويعتبرهم أنصار قضية سلام ولا ينظر إليهم من حيث هم خونة الأمانة ، وهكذا بدأ «فوتشس» يفضى بمكنون صدره «لسكاردون» ، ولما انتهى من حديثه ، كان قد اعترف فخورا بأنه أعطى الاتحاد السوفيتى القنبلة الذرية . وقد كلفه هذا الاعتراف حكما بالسجن لمدة ١٤ عاماً .

ولد «**كلاوس فوتشس**» لعائلة ألمانية معظمها يساريون ، وانضم إلى الحزب الشيوعى الألمانى عام ١٩٣٢م حينما كان فى سن التاسعة عشر ، ودرس فى جامعة «كييل» ، ونبغ فى علم الفيزياء ، وتنبأ له أساتذته بمستقبل باهر فى

الأبحاث والتدريس الجامعى . لكن «هتلر» قطع خيط آماله حينما جعل الحياة مستحيلة بالنسبة للشيوعيين الألمان ، فهرب «فوتشس» إلى بريطانيا حيث تنقل بين عدة أعمال علمية مملة ، وانضم إلى جماعة مهاجرى الحزب فى «بريستول» ، وكرس جهوده للبحث عن طرق لمساعدة «موسكو» وفى عام ١٩٤١م استقطبوه للعمل فى مشروع «**خلط الأنابيب**» ، وهو اسم برئ استعير لتغطية مشروع «**القنبلة الذرية**» .

استنتج «فوتشس» أن العلماء البريطانيين والأمريكيين قد خطوا خطوات عظيمة نحو التغلب على العقبات العلمية والهندسية الرئيسية فى صناعة القنبلة النووية . عرف أيضاً أن بريطانيا وأمريكا حرصت على كتمان هذا السر العظيم عن حليفهما الاتحاد السوفيتى . حينئذ فقط اطمأن إلى أن لديه شيئاً يستطيع أن يساعد به روسيا. كانت «روث كوزينسكى» قد ضمته إلى شبكة المخابرات التى ترأسها فى بريطانيا ، فأخبرها بالخبر ، وبدأ يسرق الوثائق خلال أيام من المشروع ويسلمها «لكوزينسكى» لكى تصورها على أفلام دقيقة ، ويضيف إليها تقديراته وملاحظاته العلمية .

كيف حصل شيوعى ألمانى مثله على تصريح العمل فى مشروعى سرى خطير مثل مشروع القنبلة الذرية؟ فى تلك الأيام كان قسم خاص من المخابرات الإنجليزية المقاومة للجاسوسية ، يراقب بحذر شديد أنشطة الشيوعيين فى بريطانيا . كيف أخطأ «فوتشس» ؟ اكتشف صائدو الجواسيس من المخابرات البريطانية بعد سنوات أن خائنا من داخل المخابرات نفسها ، عميل للمخابرات السوفيتية ، دبر أمر إخفاء اتجاهات «فوتشس» الشيوعية ، وربما كان هو المسئول أيضا عن إخفاء أسرار أخرى جانبية تضيره .

فى عام ١٩٤٥م استحوذت المخابرات البريطانية على كل ملفات «**الجستابو**» تقريبا ، من مكتب المخابرات الألمانية الميدانى فى «كييل» . احتوت الملفات على سجلات مفصلة عن كل الشيوعيين فى «كييل» ، كانت قد جمعت من قبل أن يصل «هتلر» إلى سدة الحكم . من بين هذه السجلات كانت هناك أضابير ضخمة عن «كلاوس فوتشس» . فحصت المخابرات البريطانية تلك السجلات فى محاولة للعثور على أى شيوعى هاجر إلى بريطانيا خلال الثلاثينات واشتغل لحساب المخابرات السوفيتية . ومما يثير الدهشة أنهم لم يجدوا دليلا على أن المخابرات

البريطانية سبق أن تحققت من شخصية «فوتشس» ، وتلك هفوة شنيعة غير قابلة للشرح .

فى عام ١٩٤٣م عُين «فوتشس» فى مشروع «**مانهاتن**» «**بلوس ألاموس**» فى نيوميكسيكو ، حيث يوجد جهاز أمن محكم يستعين بشاشة كمبيوتر تستبعد أى عميل للعدو يحاول اختراق المشروع ، لكنه لم يفلح فى اكتشاف «فوتشس» المزود بتصريح أكيد من المخابرات البريطانية ، يسمح له بدخول أى مكان فى المشروع . وقبل أن ينقضى عام ١٩٤٤م كان قد زود السوفييت بمفاتيح أسرار القنبلة ، بما فى ذلك جهاز التفجير الداخلى الذى يسبب قوة السلاح التدميرية . لكن المخابرات السوفيتية ارتكبت فى لحظة انتصارها خطأ فاحشا كلفها الكثير .

من فرط اللهفة على المعلومات التى يقدمها «فوتشس» ، قررت المخابرات السوفيتية تعيين واحداً من عملائها الأمريكيين ، هو «هارى جولد» ، لالتقاط بعض المواد من «فوتشس» ، خلال اتصال عابر ، قرب «لوس ألاموس» وبعد ست سنوات ، حينما أدلى «فوتشس» باعترافه ، كشف النقاب عن اتصاله بالعميل «جولد» واستفادت المخابرات الأمريكية كثيرا من هذا الكشف ، لأنه أكد شكوكهم السابقة فى «جولد» .

مرة أخرى كشفت عملية «**فينونا**» للبحث عن الموجات اللاسلكية العاملة ، عن وجود ثلاث حلقات تجسس رئيسية تعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية أثناء الحرب ، وتحصل على أسرار مشروع القنبلة الذرية . إحدى الحلقات تعمل فى جامعة «شيكاغو» حيث أدار «**إنريكو فيرمى**» أول رد فعل نووى خاضع للسيطرة . والحلقة الثانية كانت تعمل فى مختبر الإشعاع بجامعة كاليفورنيا فى «بيركلى» . والحلقة الثالثة كانت مكونة من ٢٢ شيوعياً أمريكياً جُندوا قبل سنوات لسرقة الأسرار الصناعية والتكنولوچية الأمريكية ، وقد عملت هذه خارج «نيويورك» ، وتحولت عام ١٩٤٣م إلى التجسس الذرى .

تلك كانت الحلقة التى اشتغل لها «جولد» كوسيط وموجه فى البداية . كان لدى المخابرات الأمريكية بعض الإشارات إلى وجود الحلقات ، من خلال تحقيقاتها فى موضوع سرقة تكنولوچيا الرادار قبل ذلك بسنوات . وفى عام ١٩٤٥م تقدمت الشيوعية المرتدة «**إليزابيث نبتلى**» للمخابرات الأمريكية وقالت إنها كانت مساعدة

لرئيس المخابرات السوفيتية الموجه لعدد من الحلقات التى ارتكبت عددا من السرقات التكنولوچية . قالت إنها لا تعرف أعضاءها ، لكنها تذكرت أن رئيسها اتصل بأحد الأعضاء ، وهو رجل اسمه «**جوليوس**» .

عرفت المخابرات أن فريقا من رجل وزوجته تورطوا فى عملية التجسس الذرى ، ولهم قريب يعمل فى مشروع «مانهاتن» ، وانطبق ذلك على «جوليوس» ، و «إيثيل روزنبيرج» التى يعمل أخوها «ديڤيد جرينجلاس» فى «لوس ألاموس» . عرضت المخابرات الأمريكية مجموعة من صور المشتبه فى أنهم عملاء للسوفييت على «فوتشس» ، فتعرف على «جولد» باعتباره الرجل الذى يتسلم منه المعلومات فى «لوس ألاموس» .واعترف «جولد» بأنه كان يقود حلقتين ، أرشد عن أعضائهما . أما «فوتشس» فقد أمضى مدة سجنه فى هدوء ، وأطلق سراحه عام ١٩٥٩م ، فهاجر إلى ألمانيا الشرقية ، واشتغل فى معهد الطبيعة النووية حتى تقاعد عام ١٩٧٩م ، وتوفى عام ١٩٩٣م .

المخابرات بعد الحرب العالمية الثانية

بعد الحرب العالمية الثانية ، انقسم العالم إلى كتلتين : الاتحاد السوفيتى وتوابعه من مكونات الكتلة الشرقية ، والحلفاء وتوابعهم من الكتلة الغربية . وحصلت المستعمرات على استقلالها تدريجيا . وسادت العالم أيديولوجيتان : الشيوعية ، والرأسمالية . وانقسم العالم إلى شرق وغرب . وتبنى غربيون المبادئ الشيوعية . واعتنق شرقيون الرأسمالية . وانشق البعض عن مجتمعاتهم وحكوماتهم . ولجئوا إلى دول أخرى . وسجلوا بأعمالهم أساطير جاسوسية عجيبة . منهم :

* **إيجور جوزينكو** الدبلوماسى بالسفارة السوفيتية فى أوتاوا ، الذى لجأ إلى السلطات الكندية فى سبتمبر ١٩٤٥م ، كما سبق ذكره .

* ومنه أيضا **فلاديمير بتروف** وزوجته ، موظفا السفارة السوفيتية فى استراليا اللذان كشفا عن عملاء استراليين يتجسسون لصالح روسيا .

وتميزت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بازدياد عمليات التجسس ، والتسلل ، واللجوء السياسى . وانبث الجواسيس والعملاء فى المؤسسات الهامة ، والمصالح الحكومية ، والمصانع ، وهيئات البحث العلمى ، يتسترون فى مظاهر بريئة . وأدى هذا الانتشار إلى اهتمام دوائر المخابرات بالأمن الوقائى المضاد للجاسوسية ، وحماية شبكاتها ومؤسساتها ووسائلها وأنشطتها من التسلل إلى الخارج ، ومن اختراق عملاء العدو لها . وكانت بريطانيا أقدر الدول على مكافحة الجاسوسية بسبب موقعها الجغرافى كجزيرة ، وتجانس عناصر شعبها ، على عكس الاتحاد السوفيتى الذى كان يضم شعوبا كثيرة متباينة الأصول ، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية التى يتكون شعبها من أصول شتى .

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية ، قسم الحلفاء ألمانيا إلى شطرين : حكمت روسيا الشيوعية الشطر الشرقى ، وحكم الإنجليز ، والفرنسيون والأمريكيون الشطر الغربى . وبدأت مواجهة سميت بالحرب الباردة ، بدون قتال حقيقى بين جيوش الشرق والغرب . الدبلوماسية والجاسوسية كانتا ميدانى الحرب الباردة ، كانت مدن

ألمانيا الغربية الخربة مرتعا للجواسيس . بعض هؤلاء الجواسيس كانوا مجرد عصابات ـ مثل ـ **أولاد المائة مارك** ـ يجوبون فى الشرق ويعودون بمعلومات يبيعونها . وآخرون ـ مثل «**رينهارت جيهلين**» ـ يقدمون أكثر من ذلك .

★ رينهارت جيهلين مخابرات خاصة

خلال سنى الحرب ، كان جيهلين واحداً من أرقى ضباط مخابرات هتلر تخصص فى التجسس على روسيا وأوروبا الشرقية . حينما أحاط الحلفاء بزعماء النازى لمحاكمتهم بعد الحرب . استطاع «**جيهلين**» أن يحافظ على حياته وحريته . أمر جواسيسه فى الشرق أن يظلوا فى أماكنهم ، وأخفى صناديق عديدة مملوءة بالملفات الثمينة . ولما اعتقله الأمريكيون ، ظل هادئا كان لديه شئ ثمين يقدمه مقابل حريته . كان لديه جواسيسه وملفاته .

رينهارت جيهلين

وافق الأمريكيون على الصفقة ، وأرسلوا «جيهلين» بالطائرة سرا إلى واشنطن ، لأنهم لا يريدون أن يقع هذا الجاسوس الثمين فى أيدى الروس ، وحينما عاد عام ١٩٤٦ أنشأ وكالة مخابراته الخاصة ، يدعمه الأمريكيون ، وسرعان ما أثبت جدارته ، وزودته وكالة المخابرات الأمريكية الجديدة ، خلال العشر سنوات التالية بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار ، لمنظمته السرية ، التى أصبحت فى عام ١٩٥٦م منظمة المخابرات الرسمية لألمانيا الغربية ، برئاسة «جيهلين» حتى تقاعد عام ١٩٦٨م .

اتخذ «جيهلين» لمنظمته مقرا فى «ولاتش» قرب «ميونيخ» . وجعلها قلعة للجاسوسية ، تتستر تحت اسم شركات مزيفة ، مثل «**شركة الستائر الفينيسية**» التى كانت غرفها مكاتب عامرة بالجواسيس .

أنجزت المخابرات الأمريكية ومنظمة «جيهلين» معاً عمليات كثيرة ، ولعل أهمها

«نفق التليفونات» فى عام ١٩٥٥م انهمك الأمريكيون فى بناء محطة رادار جديدة فى ضاحية «**رودو**» ببرلين الغربية . وانتهزت المخابرات الأمريكية الفرصة لتحفر بمساعدة خبراء «جيهلين» ـ نفقا طوله ٦٠٠ متر ، يمر تحت سياج الأسلاك الشائكة ، إلى داخل ألمانيا الشرقية ، وكان الهدف من ذلك هو التنصت على خطوط التليفونات الرئيسية فى ألمانيا الشرقية . كان عملا فذا مدهشا . اقتضى حفر آلاف الأطنان من التربة ، ونقلها على عربات سكك حديد ضيقة صغيرة خاصة بالجيش الأمريكى . وتم لحام أجزاء النفق تحت الأرض ، وحشو الجدران بمعدات التسجيل وتضخيم الصوت . وفى نهاية النفق لوحة مفاتيح يمكنها أن تتعامل مع ٤٣٢ محادثة تليفونية منفصلة فى وقت واحد .

ظل النفق مسرحا للعمليات تسعة أشهر . وفى ٢٢ أبريل ١٩٥٦م اندفع الروس فجأة فى الطرف البعيد . أدى جهاز التحذير الكهربائى واجبه ، فلم يبق فى النفق أحد من الجانب الغربى . ووجده الروس مهجورا رغم وجود كل المعدات فى أماكنها . ترك العمال كل شئ فى مكانه ، وبارحوا النفق بسرعة ، حتى أن الروس وجدوا القهوة تغلى فى غرفة بعيدة .

قيل إن الجاسوس «**جورج بليك**» خان «جيلهين» وبلغ الروس عن سر النفق . و«بليك» شيوعى ذو وجهين ، فى عام ١٩٦١م اكتشف أمره ، وحوكم كجاسوس ، وصدر الحكم بسجنه ٤٢ سنة ، لكنه استطاع الهرب من السجن ، والفرار إلى روسيا . وسيأتى الكلام عنه بالتفصيل .

★ جورج بليك أفشى سر النفق

رجل نحيل القوام ، يتدثر بمعطف صينى مبطن ، يبدو كشبح شخص كان ممتلئ الجسم فيما مضى ، اجتاز خط الحدود ذات صباح فى ربيع ١٩٥٣م ، يبدو كأنه أفاق توا من كابوس ، ولا غرو ، فهو «**جورج بليك**» ، نائب القنصل ومعه زملاؤه الدبلوماسيون البريطانيون ، الذين أطلق سراحهم أخيرا بعد حوالى ثلاث سنوات من الأسر فى شمال كوريا ومنشوريا .

سيق «بليك» إلى نقطة استبدال السجناء مع آخرين ، وهناك التقى بوكيلين للمخابرات البريطانية ، لعملية استخلاص معلومات فورية . كانت مهمة «بليك» كنائب قنصل هى مجرد التغطية ، كان وكيلا للمخابرات البريطانية ، ذهب إلى

سيئول عام ١٩٤٨م ليفتتح أول محطة للمخابرات فى كوريا . وفى عام ١٩٥٠م اجتاح الغزو الكورى الشمالى سيئول ، فلم يجد «بليك» ورفاقه الدبلوماسيون وقتا للفرار ، وسجنوا ليذوقوا مرارة الأسر فى كوريا الشمالية ثم فى منشوريا فيما بعد .

كانت المخابرات البريطانية فى أشد الحاجة إلى توجيه سؤال عاجل إلى «بليك» لتعرف ما إذا كان الشيوعيون قد اكتشفوا صلته بالمخابرات؟ ... أكد لهم «بليك» أنهم لم يعرفوا ، وأنه خلال مدة أسره بطولها أقنع الشيوعيين بأنه «بليك» نائب القنصل . كان زملاؤه الأسرى يتحدثون عنه بإعجاب مرددين أنه يؤدى دوره بشجاعة وثبات، ويتصرف كملهم للأسرى الآخرين . حدثت استجوابات أخرى من جانب المخابرات البريطانية أثناء وجود «بليك» فى «هونج كونج» للراحة والاستجمام ، لكن المخابرات البريطانية لم تعرف أن «بليك» قابل ذات مساء ممثلا لمخابرات أخرى ، يحمل لها الولاء الحقيقى ، وهى المخابرات السوفيتية .

من الصعب تصديق أن ولاء «بليك» لقضية الشيوعية ظل ثابتا لم يهتز بعد تجربة الأسر فى منشوريا ، ولكنها إحدى التناقضات الكثيرة المتعلقة بالرجل الذى يجسد قصة أغرب جاسوس على مدى الزمان .

لكى نفهم «بليك» ، من الضرورى أولا أن نعرف أنه ولد عام ١٩٢٢م باسم «**جورج بيهار**» ، وهو ابن واحدة من أقدم العائلات اليهودية المعروفة فى أمستردام ـ توفى أبوه بينما كان سن الولد ١٤ سنة ، وبناء على وصية أبيه المتوفى ، أرسل ليلتحق بالمدرسة الإنجليزية المشهورة فى القاهرة . عاش مع أقاربه ، يمضى معظم وقته مع عمه «**هنرى كوريل**» ، الذى كان عضوا رئيسيا فى الحزب الشيوعى المصرى ، وعميلا قديما للمخابرات السوفيتية . توسم العم فى ابن أخيه الذكى سمات تؤهله لكى يكون جاسوسا بارعا ، فأخذ يسقيه مبادئ الشيوعية رشفة رشفة، فما أن عاد إلى أمستردام ، حتى كان مشبعا بها تماما . التحق بمدرسة عليا فى

جورج بليك

روتردام ، لكن الألمان اجتاحوا البلاد عام ١٩٤٠م ، فانقطعت دراسته وفرت أمه واختاه إلى إنجلترا. أما هو فقد قرر البقاء ، والانضمام إلى صفوف المقاومة وحرب العصابات ، منتحلا اسم «**ماكس دى فريز**» ، ولما وقع فى أيدى الجستابو وحّضروه للمحاكمة استطاع الإفلات ، وهرب إلى لندن عن طريق بلجيكا ، متنكرا فى زى راهب لا ترابى . وفى إنجلترا غيرّ اسمه إلى «بليك» ، وتطوع فى البحرية الملكية ، وأكد على أمله فى العمل بالمخابرات .

سرعان ما تحققت أمنيته ، لكنه أستاء حينما تحقق من أنه عمل مكتبى . لكنه فاز فى عمله المكتبى بمن غرق فى حبها حتى أذنيه ، وهى سكرتيرة فى المخابرات البريطانية اسمها «**إيريس بيك**» ، وقررا الزواج لكن عائلة «بيك» اعترضت ، فلم يكن هناك سبيل أن تسمح عائلة بريطانية لابنتها بالزواج من يهودى ، وهكذا انحنت الفتاة للضغوط وانهارت العلاقة بينهما.

صار «بليك» فريسة اليأس والإحباط ، واستبد به الحنق والغضب ، وأقسم على الانتقام من المجتمع الذى حرمه من أعظم حب فى حياته ، بث شكواه لعمه «هنرى كوريل» أقرب الناس إليه . استمع العم إليه باهتمام ، واقترح عليه نوع الانتقام ، وهو أن يعمل فى خدمة «قضية الثورة العالمية» ، بمعنى أن يخترق «بليك» المخابرات البريطانية ، وفى اللحظة المناسبة يصل إلى منصب يستطيع منه أن ينتقم ، ويضرب ضربته .

استغرق «بليك» وقتا طويلا فى الوصول إلى هدفه الرئيسى وهو الالتحاق بالمخابرات البريطانية . فى نهاية الحرب العالمية الثانية ظل يعمل لشعبة مخابرات البحرية ، ونقل إلى «هامبورج» رئيسا لوحدة صغيرة ، وأبلى بلاء حسنا فنقل إلى المخابرات البريطانية ، ثم عين عام ١٩٤٨م ـ بعد عام واحد ـ فى أول وظيفة رئيسية يشغلها رئيسا لمحطة سيئول الجديدة .

لم تضعف سنوات الأسر الثلاث تصميم «بليك» على الانتقام من المجتمع البريطانى . ولم تحن الفرصة إلا فى عام ١٩٥٥م ، بعد عامين من العمل المكتبى فى القيادة ، حين نقل إلى إحدى وظائف المخابرات البريطانية الأكثر أهمية في «برلين» . لم يكن هناك أفضل من «برلين» عام ١٩٥٥م لعميل المخابرات السوفيتية . فقد كانت المدينة معبرا حيويا للجاسوسية من الشرق والغرب ، وهى

بمثابة المخفر الأمامى لما لا يقل عن عشرة وكالات استخبار . و «بليك» يعمل فيها كواحد من ممثلى المخابرات الأنجلو أمريكية التى تشرف على عمليات التخابر الرئيسية المختلفة ، فضلا عن إشرافه على محطة مخابراته الحساسة .

فاز «بليك» بأول فرصة كبيرة بمجرد وصوله إلى برلين . علم أن المخابرات الأنجلو أمريكية مشغولة فى «**عملية الذهب**» ، وهى خطة جريئة لحفر خندق تحت حدود شرق وغرب برلين ، وإجراء توصيلات بخطوط التليفون ، للتنصت على كل العسكريين ، والدبلوماسيين ، ومحادثات المخابرات . مستخدمين أجهزة تسجل كل إشارة على خطوط التليفون الروسية .

حذر «بليك» الروس من العملية ، فلعبت المخابرات السوفيتية وصوبت هدف الفوز بمهارة . سمحت للخندق باكتمال الحفر دون أن يؤدى إلى نتيجة تذكر . وفى نفس الوقت انفقت المخابرات الأمريكية ملايين الدولارات لتمويل العملية وتوظيف جيش من المترجمين لترجمة ملايين المحادثات التليفونية. واعتبرت المخابرات الأمريكية أن عملية النفق ناجحة بكل المقاييس ، على الرغم من أنهم بدأوا يستغربون من قلة الفائدة الحقيقية الناتجة عن كل الاتصالات المترجمة . ولم تطل حيرة المخابرات الأمريكية كثيراً . لأن المخابرات السوفيتية ردمت النفق بعد أن اكتشفه حراس ألمانيا الشرقية بالصدفة ، أو هكذا قالوا .

بعد عملية النفق سدد «بليك» ضربة خيانة أخرى ، وهى الإرشاد عن أسماء كل عملاء المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية الذين يعرف أنهم يعملون فى محطة برلين . استفادت المخابرات الروسية كثيراً من هذه العملية وأفشلت حركة المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية فيما وراء الستار الحديدى ، هذه الخيانة الضخمة جعلت عملاء مخابرات الغرب تتركز على احتمال وجود خائن فى محطة برلين . استطاع بليك أن يبعد عنه الشبهة فى كل استجواب ، حتى حينما صرح «**هورست إتنر**» ، العميل الألمانى بمحطة برلين ، بأنه كان يعمل لحساب المخابرات السوفيتية ، وأشار إلى أن «بليك» ربما اشتغل هناك أيضاً . قال «بليك» إنه كان يتظاهر أحيانا بأنه متعاطف مع المخابرات السوفيتية ، ليكشف مَن بين عملاء المحطة الألمان ذا وجهين .

شعر «بليك» بحرارة نار الخطر تقترب منه ، واقترح عليه عمه «كوريل» طلب

النقل إلى وظيفة أخرى ، فطلب من المخابرات البريطانية نقله للعمل فى الشرق الأوسط . وافقت المخابرات البريطانية . وفى عام ١٩٦٠م سافر إلى لبنان ليدرس دراسات عربية فى كلية الشرق الأوسط ، تمهيدا لإلحاقه بمحطة بيروت للمخابرات البريطانية . لكنه لم يوفق ، وأصبح على وشك الانهيار .

وصل «بليك» إلى لبنان . وكان هناك عميل بولندى يعمل فى نفس الوقت لحساب المخابرات السوفيتية ، بدأ يرسل تقارير فى أعلى درجات الأهمية إلى المخابرات الأمريكية ، يذكر فيها بين أمور أخرى ، أن محطة المخابرات الأنجلو أمريكية فى برلين اخترقها خائن اسمه «جورج بليك» . وفى يناير ١٩٦١م اتضح أن اسم العميل «**ميكيل جولينويسكى**» ، وأنه ارتد إلى المخابرات الأمريكية ، وقدم أدلة لا تقبل الجدل ، من ملفات المخابرات السوفيتية، وثائق تثبت أن «بليك» عميل لروسيا .

استدعت المخابرات «بليك» إلى لندن ، بحجة أن كبار موظفى المخابرات البريطانية ، يريدون مناقشته بشأن منصبه الجديد . وعلى غير ما كان متوقعا وصل «بليك» إلى قيادة المخابرات البريطانية ، وهناك وجه فورا بالتهم الموجهة إليه ، وأدهش مستجوبوه باعترافة فى الحال ، ورسم صورة للأضرار التى تسبب فيها ، بما فيها القضاء على ٤٢ عميلا على الأقل ، تم إعدامهم جميعاً ، وسر نفق برلين ، وقائمة طويلة من عمليات أخرى . منها قضية «**بيوتر بوبوف**» الحزينة .

فى عام ١٩٥٢م ألقى كولونيل روسى اسمه «**بوبوف**» رسالة فى سيارة دبلوماسى أمريكى فى فينا . يتطوع فيها لخدمة المخابرات الأمريكية ، التى سرعان ما علمت أنه تحرر من وهم النظام السوفيتى ، وعزم على الاشتراك فى هدمه . عاش حياة ابن فلاح ، ثم امتلأ سخطا على ما يستمتع به الموظفون السوفييت من بحبوحة العيش . بينما معظم أفراد الشعب يعيشون على هامش الفقر . وقبل أجراً ضئيلا على خدماته للمخابرات الأمريكية ، منحها لأخيه كى يشترى بقرة .

زود «بوبوف» المخابرات الأمريكية بأول معلومات عن العسكرية السوفيتية ، ذلك العالم المقلق ، على أسلحته الجديدة ، ونظام نشر وحداته فى شرق أوروبا ، وكيف خطط السوفيت لخوض حرب ذريه فى حالة اعتداء الغرب . وفى عام ١٩٥٦م نقل إلى محطة المخابرات السوفيتية فى برلين الشرقية ، وفى الوقت الذى علم فيه

«بليـك» بأمر «بوبوف» ، أخبر المخـابرات السوفيتية .

طُلب من بوبوف أن يعود إلى موسكو للتشاور ، واعتقل بمجرد وصوله إلى العاصمة . وبدلا من إعدامه ، قررت المخابرات السوفيتية إعادته بعد تهديده بقتل أسرته ، .أمروه بلبس جهاز تسجيل بدنى ، ومقابلة وكيل المخابرات الأمريكية المعين حديثا ، الذى سيكون موجهه الأمريكى فى موسكو وفى أول لقاء بينهما فى إحدى غرف فندق معين ، فك «بوبوف» ضمادا كان حول إحدى يديه ، دون أن ينبس بكلمة واحدة ، ليكشف عن كلمة «**تعذيب**» مكتوبة على الإبهام بالحبر ، ثم صنع حركة دائرية بيديه محذرا المخابرات الأمريكية من أنه يلبس سلكا ، أى أنه مزود بجهاز تسجيل .

بالكشف على أشرطة التسجيل ، أدركت المخابرات السوفيتية أن «بوبوف» حذر المخابرات الأمريكية بطريقة ما من الفخ المنصوب . يئست المخابرات السوفيتية فى النهاية . وبينما كان «بوبوف» والوكيل الأمريكى يلتقيان فى شاحنة بموسكو ، فى أحد أيام أكتوبر ١٩٥٩م ، ألقى القبض عليهما ، وكان «بوبوف» قد كتب تحذيرا بأن العسكرية السوفيتية اكتشفت الارتفاع العمودى للطائرة «يو ـ٢» . وعزمت على إسقاط إحدى الطائرات ، تقرر طرد رجل المخـابرات الأمريكية من البلاد باعتباره دبلوماسيا . لكن «بوبوف» تعذب ، وقاسى ما أصبح مصيرا تقليديا لكل من يخون المخابرات السوفيتية ، جعلوه غذاء حيا لأحد الأفران ، تحت بصر زملائه .

أما «بليك» فقد قضت المحكمة العليا بسجنه ٤٢ سنة ، وكان عمره آنذاك ٣٩ سنة . لكن ذلك الحكم لم يكن الصفحة الأخيرة فى حياة «بليك» ، إذ هرب من السجن عام ١٩٦٧م ، بعد أن أمضى فى السجن ستة أعوام . قيل إنه هرب بمساعدة المخابرات السوفيتية . والواقع أن هروبه كان من تدبير أحد أصدقائه القدامى . عضو فى الجيش الأيرلندى الجمهورى ، اسمه «**سين بورك**» أخفاه عن الأعين عدة أسابيع حتى خفت حدة البحث عنه مقابل مكافأة سخية ، ثم اتصل بالروس ، فهربوه إلى موسكو ، وذهب معه «بورك» أيضا إلى موسكو ، لكنه عاد بعد عدة أشهر إلى وطنه أيرلندا . وصمم خلال السنوات التى عاشها ، على أنه دبر أمر هروب «بليك» من السجن بدافع من الصداقة ، ولم يكن هناك أدنى اتفاق على ذلك مع المخابرات السوفيتية .

لم يصدقه سوى أشخاص قلائل . أما إذا كان «بورك» قد قام بهذه المغامرة

لحساب المخابرات السوفيتية ، فإنه يكون قد أخذ معه هذا السر إلى القبر .

وفى موسكو منحت المخابرات السوفيتية «بليك» مسكنا مريحا ، حيث كان يستمتع بقراءة الكتب المسلية ، مثل رواية «**ريتشارد كوندون**» : «**الزميل المنشورى**» ، التى نسجت أصلا من قضيته ، تزوج امرأة روسية ، تاركا زوجته وطفلين فى بريطانيا . وفى عام ١٩٩٠م أجرى معه التليفزيون السوفيتى لقاء تفاخر فيه بأنه خان أكثر من ٦٠٠ وكيل للمخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية .

★ حلقة بورتلاند والجواسيس الخمسة

فى أوائل عام ١٩٦٠م ، بدأ ضباط الأمن السريون فى مؤسسة أسلحة الأعماق البريطانية بمدينة «**بورتلاند**» ، التحرى عن واحد من كتبة المؤسسة ، اسمه «**هارى هوتن**» ، أثار حوله الشبهات منذ حين ، وقد دأب مؤخرا على شراء أشياء غالية الثمن ، وهى كوخ خلوى للعطلات ، وسيارة جديدة .. من أين له أسباب الترف والرفاهية هذه ؟ .

وضعت المخابرات البريطانية «هارى هوتون» تحت المراقبة اللصيقة تسعة أشهر . راقبوا أيضا زوجته «**إثيل جى**» التى تعمل فى بورتلاند أيضا ، اكتشفوا أنهما يذهبان فى رحلات إلى لندن بين الحين والآخر ، وهناك يقابلان رجلا اسمه «**جوردون لونسديل**» . فى هذه المقابلات يتبادل «هوتون» و«لونسديل» لفافتين ، لم يكن صعبا تخمين ما يجرى . كان «هوتون» و «جى» يستبدلان الأسرار بالمال . كانا جاسوسين ثانويين .. فماذا عن «لونسديل» ؟ .

كان «جوردون لونسديل» فى ظاهره رجل أعمال كندى ناجح يعيش فى بريطانيا منذ خمس سنوات . وكان مدير شركة محترماً . محبوبا . ليس فى سلوكه ما ينم عن حقيقته . والحقيقة هى أنه عميل روسى مخلص، اسمه الحقيقى «**الكولونيل كونون تروفيموفيتش مولودى**» . وهو جاسوس متدرب ، يعيش ويعمل تحت اسم مستعار . تسلل إلى كندا فى عام ١٩٥٤م وأمضى عاما هناك فى تحسين لهجته والحصول على جواز سفر وأوراق تحقيق شخصية . قبل الذهاب إلى بريطانيا كانت بطاقته الشخصية دقيقة ومقنعة جداً ، حتى أنه حينما تعرف على «هوتون» وزوجته اعتقدا أنه كان عميلا أمريكيا ، يؤدى عملا جاسوسيا وديا فى مؤسسة بورتلاند .

فى ٧ يناير ١٩٦١م تم القبض على «هوتون» و «جى» و «لونسديل» ، أثناء تبادل لفافات ، قرب مسرح «**أولد فيك**» فى لندن ، اعترف هوتون قائلا: «لقد كنت غبيا» . وحاولت «جى» التظاهر بالبراءة . أما الجاسوس المحترف «لونسديل» فقد أصر على الصمت المطبق .

بيت بيتر وهيلين كروجر

اتجهت «**سكوتلانديارد**» إلى التحرى عن أصدقاء «لونسديل» ، وقرر مديرها «**سميث**» أن يزور البيت الريفى الذى يسكنه «**بيتر كروجر**» وزوجته «هيلين» . كانا يتاجران فى الكتب النادرة . وكانا كنديين مثل «لونسديل» ، الذى تعود على زيارتهما بين الحين والحين فى بيتهما فى «**رويزليب**» كانا ودودين تبدو عليهما البشاشة .

طلب منهما المدير «سميث» أن يرافقاه إلى «سكوتلانديارد» لاستكمال الاستجواب . وافقت السيدة كروجر بأدب ، وسألت عما إذا كان فى استطاعتها إطفاء السخان قبل مغادرة البيت . أجابها «سميث» قائلا: «بكل تأكيد ، لكن دعينى أولا أرى ما فى حقيبة اليد التى تحملينها» . رفضت السيدة «كروجر» ، فسحب الحقيبة من يدها عنوة . وإذا به يعثر فيها على رسالة باللغة الروسية من ست صفحات . وثلاث صفحات مثقبة ، وصفحة مطبوعة بالشفرة .

«كروجر» وزوجته «هيلين» ، كانا يقيمان فى بريطانيا بطريقة غير مشروعة مثل «لونسديل» . عثر فى بيتهما الريفى على معدات جاسوسية متقدمة . من «**كارنلى درايف**» فى «رويزليب» دأبا على إرسال أسرار «لونسديل» خلال الرموز المثقوبة ، والبث اللاسلكى ، إلى مركز المخابرات السوفيتية فى موسكو .

عثر «سميث» أثناء التفتيش على حمام يمكن تحويله إلى غرفة مظلمة لأعمال التصوير ، وجوازات سفر مزورة ، وجهاز إرسال لاسلكى مخفى فى تجويف تحت أرض المطبخ الخشبية . وبعد القبض على كروجر وزوجته ، عثر الساكن الجديد على جهاز إرسال لاسلكى آخر فى أرض الحديقة .

اتضح أن الاسم الحقيقى لكروجر وزوجته ، هو «**موريس ولونا كوهين**» ، وأنهما جاسوسان مدربان ، اشتغلا ضمن حلقة «**رودلف آبل**» فى أمريكا ، وهربا إلى إنجلترا حينما انهارت الحلقة فى أمريكا . قضت المحكمة بسجن «لونسديل» ٢٥ سنة ، وكروجر وزوجته ٢٠ سنة ، وهوتون وزوجته جى ١٥ سنة لكل منهما .

★ هارولد كيم فيلبى أستاذ الخيانة

اسمه الرسمى «**هارولد أدريان روميل فيلبى**» ، لقبه «كيم» وله اسمان حركيان هما «**ستانلى**» و «**العميل توم**» .

هـ ـ أ ـ ر ـ فيلبى

سئل قبيل وفاته عما إذا كان لا يشعر بأنه خان وطنه بريطانيا ، فقال : «الخيانة تتطلب الانتماء أولا . وأنا لم أشعر أبدا بالانتماء» . ومهما يكن هذا القول مبهما، فإنه التفسير الوحيد الذى قدمه أغرب عميل فى تاريخ الجاسوسية . كان «فيلبى» جاسوسا لوكالة المخابرات السوفيتية . سرب أسرار مخابرات بلاده قرابة ثلاثين عاما . وصل إلى قيد شعرة من منصب رئيس المخـــابرات ، وهو فى نفس الوقت يتجسس للعدو بنتائج تتجاوز الأحلام ، وصارت قصته مصدر وحى لعدد لا يحصى من الروائيين ، والقصاصين ، والكتاب الذين حاولوا تفسير ظاهرة فيلبى ، وتحليل شخصيته ، وتحديد دوافعه على الخيانة .

ركز المحللون على طفولته وحياته المبكرة ، بحثا عن بؤرة ترديه فى وهدة خيانة الوطن ... فهو من مواليد الهند قبيل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٢م ، أمه بريطانية ، وأبوه المستعرب «**سانت جون فيلبى**» رجل غريب الأطوار ، بنى لنفسه اسما فى الشرق الأوسط حيث اشتغل لحساب المخابرات البريطانية ، وكانت مهمته تحريك الثورة العربية ضد تركيا بعد الحرب ، اقتنع العرب بأن بريطانيا خانتهم ، انتقل إلى المملكة العربية السعودية ، واعتنق الإسلام ، وتزوج امرأة عربية زوجة ثانية، وكان دائما يحذر ابنه من تصديق كلام الحكومة البريطانية .

كان «فيلبى» وابنه متقاربان ، لكن الأب لم يكن يتدخل فى ميول ابنه السياسية نحو الشيوعية . والواقع أن هذا الاتجاه لم يبدأ إلا حينما التحق الابن بجامعة «كامبريدج» عام ١٩٢٩م ، بعدما أصبح صديقا حميما لكل من «**جاى بيرجيس**» و «**دونالد ماكلين**» ، وكانا من غلاة الماركسيين ، ، ونجحا فى إشباعه بالأفكار الشيوعية ، وخلال الإجازات كان يتجول فى أوروبا حيث كانت مسارح الرعب النازى ، مما ثبت اعتناقه للشيوعية وقوى حماسه للماركسية ، وخلال صيف عام ١٩٣٤م كان فى «فينا» حينما قرر أن يصبح جنديا فى الصراع ضد الفاشية .

انغمس فى دوامة الاضطراب السياسى . كان اليمين الحكومى مشتبكا فى صراع حياة أو موت مع الخصوم اليساريين ، وسجل «فيلبى» اسمه متطوعا فى قائمة الثوار الاشتراكيين الذين يساندهم الشيوعيون النمساويون ، وبدأ بالعمل مراسلا بين عدد من المخافر الأمامية المضادة للحكومة . والتقى فى هذه الفترة بفتاة شيوعية نمساوية أحبها ، وهى «**أليس فريدمان**» ، المعروفة باسم «ليتز فريدمان» . كانت غارقة لأذنيها فى الصراع الذى يهز المدينة ، والذى بلغ القمة حينما قصفت قوات الحكومة مساكن العمال وقتلت مئات وشاهد «فيلبى» المذبحة فتحول من يومها إلى متطرف راديكالى .

تصادف أن كان للمخابرات السوفيتية رجلان يعملان فى المدينة ، وهما المجرى «**تيودور مالى**» ، وهو قسيس سابق تحول إلى الشيوعية ، و«**جابور بيتر**» وهو أيضا شيوعى ، وقد توسم كلاهما فى «فيلبى» سمات نادرة تؤهله للجاسوسية والتفانى الأعمى فى خدمة الشيوعية ، فجندوه لخدمة ما سميت بقضية الثورة العالمية . وكان عليه أن يخفى ولاءه للشيوعية ، ويحاول أن يتسلل إلى وظيفة فى الحكومة البريطانية ، وياحبذا فى خدمة المخابرات . بادر «فيلبى» بعمل كل ما من شأنه محو ماضيه الشيوعى كمدخل أساسى للالتحاق بخدمة الحكومة البريطانية ، وانضم إلى عضوية الجميعة الأنجلو ألمانية ، وهى جمعية يمينية يدور نشاطها حول تنمية فكرة عقد حلف مع ألمانيا النازية ، وزيادة فى التمويه بأنه تنصل من الشيوعية طلق «أليس فريدمان» . وسنحت فرصة اختراقه للعمل الرسمى عام ١٩٣٦م ، حينما حصل على وظيفة مراسل لجريدة «لندن تايمز» فى الحرب الأهلية الأسبانية ، إلى

جانب «فرانكو»، وتعمد أن تكون تقاريره الصحفية متحيزة للجنرال فرانكو، فذاعت شهرته على أنه يميني متطرف، على الرغم من أنه كان يزود المخابرات السوفيتية بما يلتقطه من معلومات من حاشية فرانكو. وكادت حياته الجاسوسية تنتهي في مهدها حينما اشتبه فيه جنود وطنيون وحجزوه للاستجواب، وكان معه أوراق تدينه، ولما طلبوا منه تقديم حافظة أوراقه، تظاهر بأنها سقطت منه عفوا تحت الطاولة، وانحنى الجنود لالتقاطها، فانتهز الفرصة وازدرد الأوراق.

في عام ١٩٣٩م كان لا يزال مراسلا لجريدة «التايمز» وحانت الفرصة التي طالما انتظرها، ذلك أن زميله في الدراسة، ورفيقه في الشيوعية «جاي بيرجيس»، كان يعمل في وكالة المخابرات البريطانية فضمه إليها. وظلت الوكالة تتحرى عن ميوله وأنشطته بين الحين والآخر. وسئل أبوه عما إذا كان «فيلبي» شيوعيا حقا، فنفى ذلك بشدة قائلا: «كانت مجرد حماقات سياسية مما يقع فيها المراهقون» وانتهت بذلك التحريات، وانزاحت عن طريق مستقبله خلفيته المشبوهة.

في عام ١٩٤١م ألغيت إدارة المخابرات البريطانية واستبدلت بوكالة أخرى أعادت تنظيم جهازها، واكتشفت أن «فيلبي» يعاني من فأفأة في النطق، فجنبته العمل الميداني، وعينته في الأعمال المكتبية بشعبة الاستخبارات المضادة في الدول الأجنبية، وكان ذلك هو الموقع الذي لم يحلم بأحسن منه، لا هو، ولا وكالة المخابرات السوفيتية، لأنه سيطلع في هذا الموقع على آفاق بعيدة من المعلومات والتقارير، التي لا تتوافر لأي عميل ميداني.

كان «فيلبي» معروفا بين رجال المخابرات البريطانية، محبوبا منهم. ومن ناحية أخرى كان ملفه عامراً بما يكفي من الوثائق التي توفر فيه ثقة رؤسائه، واشتهر في الوقت نفسه بسهولة تآلفه مع الأقل مرتبة. ولأنه ولد في الهند مثله مثل الشاعر «**روديارد كيبلبخ**».. ولأنه كان رجل مخابرات موهوب، تنبؤا له برئاسة وكالة المخابرات بأسرها في المستقبل، وأطلقوا عليه اسم «**كيم**».

في أواخر عام ١٩٤٤م واتت «فيلبي» صفقة حظ مدهشة، إذ أسندوا إليه رئاسة الشعبة التاسعة بوكالة المخابرات البريطانية، وهي الشعبة المنوط بها التصدي لعمليات الهدم والجاسوسية السوفيتية التي كانت مجمدة حينما كانت روسيا حليفة لبريطانيا. فلما قاربت الحرب على الانتهاء، واتضح أن الاتحاد السوفيتي

سوف يكون عدو الغرب التالى ، فكرت المخابرات البريطانية فى بعث الشعبة تحت إدارة «فيلبى» ، وزودته بمائة عميل .

كسبت المخابرات السوفيتية موقعا فوق التصور . قد لا يعرف سوى أرشيف مخابرات موسكو مقدار ونوع الخيانات التى اقترفها «فيلبى» بالتفصيل ، والموضوعات التى نقلها إليها ، لكن بات من المؤكد أنه أسدى للسوفيت خدمتين حيويتين أثناء الحرب . **الأولى** هى الإحباط التام لكل جهود أعداء النازية الألمان السريين للحصول على دعم بريطانى للإطاحة بهتلر . كان هؤلاء بمثابة أفظع كابوس لموسكو . فلو أن حكومة ألمانية جديدة قامت على أشلاء النازى . فإنها ستسعى بكل تأكيد إلى عقد اتفاقية سلام منفصلة مع الغرب ، وهو ما يمثل كارثة حقيقية للاتحاد السوفيتى ، خصوصا إذا احتفظ الألمان بكل جيوشهم وساقوها نحو الشرق . لكى يجهض فيلبى هذه الخطة ونتائجها ، فعل كل ما من شأنه تشويه تقارير معارضى هتلر ، وتجريدها من فاعليتها وجدواها ، ووصمها بأنها لا تستحق النظر .

أما **الخدمة الثانية** التى قدمها «فيلبى» للمخابرات السوفيتية فهى تزويدهم بأسماء عملاء المخابرات البريطانية العاملين فى أوروبا الشرقية ، فلما استولت موسكو على المنطقة فيما بعد أحاطت بهم . وفى الوقت نفسه خان «فيلبى» شبكة الجاسوسية المضادة للسوفييت التى نسجها بنفسه كرئيس للشعبة التاسعة . وكانت المخابرات السوفيتية تحصل منه على التحذيرات والمعلومات ، وتعيد إليه معلومات مضللة ، خدعت المخابرات البريطانية سنوات .

فى عام ١٩٤٥م واجه «فيلبى» أزمة هددت بوضع نهاية لوظيفته على الأقل . ذلك أن رجلين من مخابرات السوفييت لجأا إلى الغرب : أحدهما «**إيجور جوزينكو**» ، وهو كاتب شفرة فى السفارة السوفيتية بكندا هرب بكمية برقيات سوفيتية سرية جدا ، وما يحتويه رأسه من معلومات خطيرة والرجل الثانى هو «**كونستانتسين فولكوف**» ضابط مخابرات روسى كبير فى «إستانبول» ، لم يكن قد هرب بعد ، لكنه تقدم للسفارة البريطانية بطلب لجوء سياسى ، قرر فيه أنه يعلم علم اليقين أن المخابرات السوفيتية اخترقت المخابرات البريطانية . لم يعرف فولكوف شخصية العميل السوفيتى ، لكنه أشار إلى عدة علامات ، تكشف عن شخصية

العميل «فيلبى» ، لو فحصت بدقة .

استشار «فيلبى» موجهه «**يورى مردين**» وكيل المخابرات الروسية الأسطورى ، الذى يشرف فى لندن على شبكة الخمسة العاملين فى بريطانيا وهم : «**فيلبى**» و«**ماكلين**» و «**بورجيس**» و «**أنتونى بلانت**» و «**جون كيرنكروس**» .

وجد «**مودن**» أن فيلبى لا يستطيع التعامل مع الجاسوسين الروسيين المرتدين ، وأن على المخابرات السوفيتية أن تختار أشدهما خطرا وتتخلص منه واستقر الرأى على «**فولكوف**» ، وكان على «فيلبى» ـ بحكم رئاسته للشعبة التاسعة ـ أن يستخلص المعلومات من «فولكوف» بنفسه ، عن أشخاص قال إنهم اخترقوا المخابرات البريطانية لصالح روسيا .

سافر «فيلبى» إلى «إستانبول» فى الوقت نفسه الذى قررت فيه المخابرات السوفيتية التخلص من التهديد المتمثل فى ارتداد «فولكوف» ، ولم يكشف النقاب حتى الآن عما جرى لفولكوف ، غير أن شهود عيان رأوا جسما ملفوفا بأربطة الضمادات من الرأس إلى القدم ، يزج على متن طائرة سوفيتية فى مطار إستانبول ، فى نفس يوم اختفاء «فولكوف» فجأة .

اتضح أن « **جوزينكو**» لم يكن على دراية بعمليات المخابرات السوفيتية داخل بريطانيا ، وهذا ما كان متوقعا ، ومن ثم عاد «فيلبى» إلى لندن مطمئنا . فى نهاية الحرب ارتفع نجمه بثبات متألقا فى سماء المخابرات البريطانية ، التى غابت عنها خيانته تماما ، بما فى ذلك الإرشاد عن الفدائيين من رجال المخابرات البريطانية العاملين ضد الشيوعية فى دول البلطيق ، وعمليات أخرى مشابهة فى أوروبا الشرقية .

دار حديث فى وكالة المخابرات البريطانية عن قرب ترقية فيلبى خلفا لمدير المخابرات «**ستيورات منزيس**» . وتأكدت الترقية بنقله عام ١٩٤٩م رئيسا لمحطة المخابرات البريطانية فى واشنطن ، تحت ستار وظيفة سكرتير أول سفارة بريطانيا فى أمريكا . وكان من بين أهم واجباته المنوطة به . أن يعمل كحلقة اتصال بين المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية . واعتبرت المخابرات السوفيتية هذا النقل ضربة حظ لم تكن فى الحسبان ، لأن «فيلبى» يستطيع من منصبه الجديد تزويد موسكو بأسرار المخابرات الأمريكية والبريطانية معا .

انتقل «فيلبى» للإقامة فى «واشنطن» وسرعان ما عرف سر أمريكا الأكبر ، شفرة اسمها «**ف ى ن و ن ا**» تستخدم فى عملية حل الشفرات ، موجهة مباشرة من لندن ، ونيويورك ، وواشنطن ، ضد شبكة المواصلات اللاسلكية للمخابرات السوفيتية خلال الحرب . شعرت واشنطن ولندن أن تغييرا طرأ على كثافة الاتصالات ، وساورهما الشك فى أن ذلك راجع إلى أن «موسكو» تحث كل عملائها على تزويدها بالمعلومات فى وقت تعاظم فيه الخطر على النظام الشيوعى ، وكان شكهما صحيحا .

بدأت العملية باكتشاف كتاب شفرة سوفيتى محترق جزئيا فى «فنلندا» ، كشف عن مفاتيح شفرية حيوية كثيرة لحل رسائل السوفيت الشفرية . ويبدو أن عدد عملاء روسيا فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا كان يقدر بالمئات . وهؤلاء لا يمكن التعرف عليهم إلا بأسمائهم الحركية . ومع ذلك استطاع قراء الشفرة مقارنة الأسماء الشفرية بمفاتيح أخرى مستمدة من رسائل مختلفة . وركزوا اهتمامهم على الشخصيات البارزة ، خاصة عميل سرب معلومات عن مشروع القنبلة الذرية ، اتضح فيما بعد أنه «**كلوز فوشز**» ، بل دوى ناقوس الخطر فى صدر «فيلبى» ، حينما أشاروا إلى عميل بريطانى يشغل منصبا مرموقا اسمه الحركى «**هومر**» ، يسرب معلومات على جانب كبير من السرية ، من وزارة الخارجية البريطانية . وجاء فى رسالة شفرية أن «هومر» سافر من واشنطن إلى نيويورك ذات مرة ليزور زوجته الحامل المريضة . وأشارت الرسالة مباشرة إلى دبلوماسى بريطانى يعمل فى السفارة البريطانية فى وشنطن هو «**دونالد ماكلين**» .

باعتباره مسئول الاتصال البريطانى فى «واشنطن» ، كان «فيلبى» عضوا فى فريق المخابرات الذى راقب تطور نقد عملية «ف ى ن و ن ا» ، ومدى تقدم محاولة تحديد شخصيات عملاء السوفييت ، ومن ثم بادر إلى تحذير المخابرات الروسية عام ١٩٥١م ، بأن قراء الشفرة قد دمغوا «ماكلين» . بهذا التحذير خشى «مودن» إذا قبض على «ماكلين» أن تنهار أعصابه ويسئ إلى الشبكة السوفيتية باعترافاته ، فقرر تهريبه إلى موسكو ، على أن تتم العملية بحذر ومهارة ، لأن فشلها يعنى أيضا وضع نهاية لفوائد «فيلبى» .

أسند «مودن» مهمة إخراج «ماكلين» من بريطانيا إلى واحد من أهم عملائه ،

وهو «**جاى بورجيس**» ، الذى كان صديقا حميما «لماكلين» ، وكان فى الوقت نفسه صديقا حميما لفيلبى ، يعيش فى بيته منذ انتقل للعمل فى أمريكا . كانت هذه علاقة مشئومة ، ازدادت سوءا حينما قرر «بورجيس» فجأة ولأسباب غامضة ، مرافقة «ماكلين» فى رحلته الجوية نحو الشرق ، مما ركز الشك فى «فيلبى» ، واعتباره الرجل الثالث الذى حذر «ماكلين» من اعتقال وشيك .

كان الموقف برمته بمثابة كارثة أصابت المخابرات السوفيتية فى توقيت مذهل ، إذ شغل «فيلبى» منصبا استخباريا حساسا جعله قيد شعره من تولى رئاسة المخابرات البريطانية ، وفجأة يتحطم كل شئ بعمل طائش من جانب «بورجيس» بعد شهور قلائل أرسل مدير المخابرات الأمريكية «**بيدويل سميث**» رسالة جافة مقتضبة إلى «**ستيوارت منزيس**» مدير المخابرات البريطانية نصها : « استعيدوا فيلبى ، وإلا نقطع العلاقات الاستخبارية » . وهكذا انتهت خدمة «فيلبى» الحقيقية للمخابرات السوفيتية . احتفظت به المخابرات البريطانية لكن فى سحابة من الشك ، فلم يعد فى موقف يتيح له تزويد موسكو بالمعلومات التى تتوقعها منه . علاوة على ذلك صار عرضة لهجوم المخابرات البريطانية والأمريكية المضادة ، التى شكت فى أنه كان الجاسوس الأعلى المشار إليه فى عملية «ف ى ن و ن ا» بالاسم الشفرى «ستانلى» . وزاد الأمر سوءا أن عددا من المرتدين السوفييت فى لندن وواشنطن قدموا أكوام المعلومات عن ضلوعه فى الخيانة . وأصبح واضحا فى عام ١٩٦١م أن الخناق قد ضاق عليه . ذلك أن عميلا آخر داخل المخابرات البريطانية اسمه «جورج بليك» تم القبض عليه ، وأدلى باعتراف كامل ، ذكر فيه بعض شواهد تشير إلى تورط «فيلبى» .

تحرك «مودن» لإنقاذ «فيلبى» ، فلجأ إلى بند قديم فى قانون المخابرات البريطانية ـ دله عليه شخص مازال مجهولا ـ يمنح «فيلبى» الحصانة مقابل اعتراف كامل . أسرع «مودن» إلى بيروت ، حيث كان «فيلبى» يعمل جاسوسا للمخابرات البريطانية ، تحت ستار وظيفة مراسل صحفى * .

وكانت خطة «مودن» تتلخص فى أن يتقدم «فيلبى» للمخابرات البريطانية بطلب استجوابه لمعرفة نوع ومقدار ما تأخذه عليه ، ثم يهرب إلى موسكو بمجرد

* مراسلا لجريدة الأوبزيروفر .

أن يكشف مستجوبوه كل أوراقهم . وأدلى فيلبى ـ بالفعل ـ باعتراف محدود ، لا يتجاوز ما استشعر أن المخابرات البريطانية تعرفه ، وفى ٢٣ يناير ١٩٦٣م تسلل من حفل عشاء واختفى ، ثم أعلنت موسكو بعد ستة أسابيع أنها منحته حق اللجوء السياسى .

رحب الروس بفيلبى ترحيبا بالغا . منحوه مسكنا فخما ، وتزوج فتاة صغيرة روسية لا تتجاوز سن بناته ، بعد طلاق زوجته الثالثة . وأجزلوا له العطاء ، وصرفوا له مرتبا شهريا سخيا ، دون أن يكلفوه بأى عملية استخبارية، لأنهم لم يضعوه موضع ثقة كاملة ، فليس هناك ما يضمن لهم ألا يتحول إلى خدمة الطرف الآخر ، وألا يقوم بدور الجاسوس ذى الوجهين ، فيعمل لصالح الغرب ما فعله لصالح موسكو . وبناء عليه صار «فيلبى» رجلا إنجليزيا منفيا بائسا ، يتجول فى طرقات موسكو ، حاملا نسخة من جريدة «لندن تايمز» وهى ميزة سمحت له بها المخابرات السوفيتية ، مع ممارسة لعبة الكريكيت . كان سكيرا ذكيا سريع البديهة حاضر النكتة ، كثيرا ما كان يرحب بزيارات الصحفيين البريطانيين ، ويسعده احترام كل الرسميين السوفييت له ، ظل محافظا على مراسلة بعض أصدقائه الإنجليز القدامى ، خصوصاً «**جراهام جرين**» ، الروائى المعروف الذى كان زميله فى المخابرات البريطانية ، والذى استنكر خيانة «فيلبى» حينما جعله بطلا لروايته «**العنصر الإنسانى**» .

لم تتغير علاقة المخابرات الروسية «بفيلبى» حتى عام ١٩٨٠م ، حينما دعاه رئيسها «**يورى أندروبوف**» للخدمة مستشارا لعمليات روسيا فى بريطانيا. ولم يعرف أحد نوع المشورة التى قدمها «فيلبى» ، لكن فرصة عودته إلى ميدان الاستخبار أسعدته كثيرا ، ولكنه أصبح معتلا ، ولم يظهر فى أى مكان بدون قفاز أبيض ، يقى كفيه من حساسية جلدية خبيثة ، كما أصيب بعدد من العلل التى استنزفت قواه ، ثم توفى فى مايو ١٩٨٨م .

لم يدخر السوفيت جهدا فى تكريم أعظم عميل لهم على مدى تاريخهم حضر جنازته كل سياسى مهم ، وكل رجال الجاسوسية الروس ، وشيعوا جثمانه فى موكب عسكرى ، وأُنعم على جثمانه برتبة «جنرال» ، ودفن حسب وصيته فى مقبرة روسية ، وثبتت على صدره الأوسمة والنياشين قبل دفنه . ومن بينها وسام لينين أرفع الأوسمة السوفيتية .

★ أنتونى بلانت خلية العملاء الخمسة

اسمه الحركى «**جونسون**» ولد عام ١٩٠٨م ، وتوفى عام ١٩٨٣م . كان أبوه رجل دين ، اشتغل فترة من حياته قسيسا للسفارة البريطانية فى باريس ، تنتمى أمه بصلة قرابة إلى الملكة الأم ، وهذا ما جعل تجنيده جاسوساً للمخابرات السوفيتية على بلاده أكثر غموضا .

كغيره من أعضاء «**خلية الخمسة العلماء الإنجليز**» التحق بجامعة «كمبردج» فى وقت انتشار الماركسية بين الطلبة ، وانضم «بلانت» إلى الحزب الشيوعى ، ولم يكتف بالخطوة السياسية ، وإنما بلغ به عمق الاقتناع بمبادئ «**ماركس**» أنه أسرع بالاضمام إلى الجاسوسية . ومن المعتقد أن تجنيده للمخابرات السوفيتية تم عام ١٩٣٣م ، وأنه الرجل الأول فى «خلية العملاء الخمسة» ، والذى حث رفاقه الماركسيين الأربعة على عمل شئ من أجل الحيلولة دون سقوط بريطانيا والنظام الرأسمالى فى هاوية ، كما أكد الحاجة العاجلة الماسة إلى مساعدة الاتحاد السوفيتى ، الذى اعتبره منارة خلاص العالم .

كان «**جاى بيرجس**» أول من جندهم «بلانت» ، وهو شاب وسيم . تبعه آخرون وهم «**دونالد ماكلين**» و «**ميشيل ستريت**» ، وهو طالب أمريكى تطور فيما بعد ليصبح أبرع مما تصور «بلانت» .

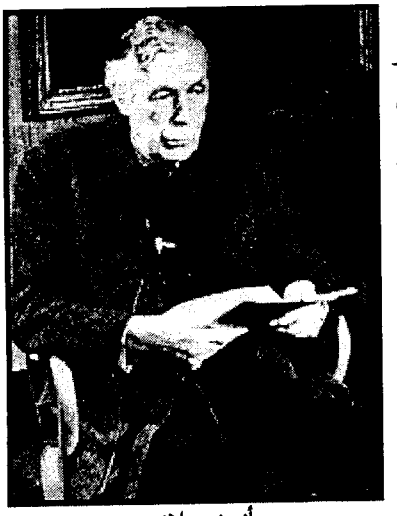
أنتونى بلانت

قد يبدو من الوهلة الأولى غباء المخابرات السوفيتية لبذل جهودها فى تجنيد طالب مغمور فى جامعة كمبردج ، ومؤرخ فنى خامل ، فماذا يستطيع مثل هذين تزويد المخابرات به . لكن الواقع أن اختيار المخابرات السوفيتية كان موفقا بعيد النظر ، إذا علمنا أن الحكومة البريطانية كانت تحصل على زعمائها السياسيين ، وكبار الموظفين ، ووكلاء مخابراتها ، من جامعتى كمبردج وأكسفورد . وهكذا كانت المخابرات السوفيتية تربى أفراخ جواسيسها فى وقت مبكر بالجامعتين ، وتشبع

عقولهم ونفوسهم بمبادئ الشيوعية ، حتى تتمكن من اختراق الحكومة الإنجليزية والمخابرات البريطانية بسهولة فى وقت مبكر ، وتنسفها باسم «**البروليتاريا**» ، فهم بمثابة خلايا سرطانية زرعتها المخابرات السوفيتية فى الجسم السياسى الإنجليزى .

هناك سبب آخر لتجنيد «بلانت» ، فقد كان له شبكة اتصالات واسعة الأطراف، تمتد على طول وعرض المؤسسة الإدارية البريطانية . وكما كانت المخابرات السوفيتية تعلم ، فإن أحد أصدقاء «بلانت» المقربين واسمه « **جاى ليديل**» ، كان يشغل منصبا رئيسيا فى المخابرات البريطانية ، تذرعت المخابرات السوفيتية بالصبر ، فلم تحاول مضايقته بالابتزاز ، لأنه يستطيع تقديم خدمات أهم ، بتسهيل التحاق عملاء مخنثين فى المخابرات البريطانية ، وحمايتهم من أى استجواب عن ماضيهم الماركسى ، أو شذوذهم الجنسى .

حاول «بلانت» الالتحاق بالمخابرات البريطانية فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، فانضم إلى فرقة أمن الميدان التابعة لمخابرات الجيش ، لكنهم لم يلبثوا أن فصلوه ، حينما اكتشفت مباحث الأمن خلفيته الشيوعية . لجأ بلانت إلى صديقه « **ليديل**» ، فألحقه بالمخابرات البريطانية . وفى الوقت نفسه التحق «بورجيس» بمخابرات الأمن البريطانى . واستطاع «بورجيس» فيما بعد ضم «فيلبى» ، فصار للمخابرات السوفيتية ثلاثة عملاء زرعتهم فى جسم المخابرات البريطانية . وكانت قد زرعت «**مالكين**» فى وزارة الخارجية البريطانية من قبل ، فحان وقت الحصاد .

أسندت إلى بلانت عملية فتح الحقائب الدبلوماسية سرا ، الخاصة بسفارات الدول المحايدة فى لندن ، واتبع فى ذلك طريقة إغراء سعاة السفارات وحملة الحقائب . فضلا عن المكافآت المالية . ابتهجت المخابرات البريطانية لحصولها على أسرار استقتها من الأوراق التى صورها «بلانت» من بين محتويات الحقائب ، وكذلك ابتهجت المخابرات السوفيتية التى كان يزودها «بلانت» بصورة من كل وثيقة وفى الوقت نفسه كان «بلانت» يبلغ موسكو عن أنشطة عدد من المنفيين الروس المقيمين فى لندن ، وكذا البولنديين والتشيك .

فى عام ١٩٤٤م عين «بلانت» ممثلا للمخابرات البريطانية فى القيادة العليا لقوات الحلفاء فى أوروبا ، مما وضعه فى موقع حساس ، وجعله على بينة من عمليات شفرية سرية رفيعة المستوى ، كعملية «**ألترا**» التى أصابت الشفرات

الألمانية بصدع ، وعملية غزو «**نورماندى**» وغيرها . ولا يعرف أحد الخدمات الأخرى التى قدمها «بلانت» للمخابرات السوفيتية ، لكنه ـ قبيل نهاية الحرب ـ قام بعملية لا صلة لها بالحرب ولا بالمخابرات السوفيتية ، ولكنها عملية وضعت العائلة المالكة فى جيبه .

خلال الثلاثينات انشغل البريطانيون بمشكلة «**دوق وندسور**» الذى كان متحمسا لمناصرة النازية . وقد اضطر إلى التنازل عن العرش البريطانى ، لرفضه قطع علاقته بالسيدة «**والاس سمبسون**» ، المطلقة الأمريكية فى عام ١٩٣٧م علمت المخابرات البريطانية أن الدوق قابل «هتلر» أثناء زيارته لألمانيا ، وعبر له عن مزيد مناصرته للنازية ، لدرجة أن «**الفوهرر**» قرر تنصيبه رئيسا لحكومة صورية بمجرد أن تهزم ألمانيا إنجلترا . فيما بعد ، عينت بريطانيا الدوق حاكما عاما لـ«**برمودا**» بعد أن علمت باحتمال استعداده لمعاونة النازية .

استطاعت حكومة بريطانيا أن تحافظ على هذه الأسرار ، وكانت تعلم باحتمال وجود وثائق خطيرة فى ألمانيا ، معظمها وسائل من الدوق يعبر فيها عن أعذب أمانى النصر للنازية الألمانية ، وأرادت أن تسترد هذه الرسائل بأى ثمن . أدى «بلانت» المهمة بنجاح وكافأته العائلة المالكة بوظيفة : أمين مكتبة الصور الملكية ، وقُلِّد وسام الفروسية عام ١٩٥٦م .

على الرغم من أن «بلانت» استقال رسميا من المخابرات البريطانية فى نهاية الحرب ، إلا أنه ظل ذا قيمة للمخابرات السوفيتية ، استمرت اتصالاته مع شبكة الرفاق والأصدقاء القدامى ، وكان يلتقى فى حفل عشاء أسبوعى مع كبار موظفى المخابرات البريطانية ، وكان يحصل من هذا النشاط على معلومات يمررها إلى المخابرات السوفيتية .

وظهرت قيمة «بلانت» مرة أخرى للمخابرات البريطانية حينما تورطت فى أول موجة من حالات جاسوسية ما بعد الحرب ، وهرب «بورجيس» مع «ماكلين» إلى «موسكو» عام ١٩٥١م . وجعل «بلانت» الأمور أصعب للمخابرات البريطانية بالتسلل إلى مسكن «بورجيس» قبل وصول شرطة الجاسوسية إليه ، وأزال أوراقا تدينه ، من بينها مذكرات بخط «**جون كيرنكروس**» أحد أفراد خلية الخمسة ، وبعض خطابات كتبها «بورجيس» إلى «أنتونى بلانت» ذاته .

والمعروف أن «بورجيس» لم يدرس اللغة الروسية ، فلما هرب إلى المنفى فى روسيا . اسكنته المخابرات الروسية فى شقة صغيرة ، ورتبت له وظيفة بسيطة فى إحدى دور النشر ، وتوفى عام ١٩٦٣م . وظل «فيلبى» غاضبا يعض أنامل الحسرة على الرحلة الجوية التى قطعت طريق مستقبله كأعظم جواسيس المخابرات السوفيتية . ولعل هذه الحسرة هى التى منعته من حضور جنازة «بورجيس» ، كما أنه لم يحضر جنازة «ماكلين» أيضا حينما توفى متأثرا بداء السرطان عام ١٩٨٣م. فى منفاه بروسيا وكان ينشر مقالات باسم مستعار هو «**إس . بى . مادزوفسكى**» . ولما هربت زوجته من لندن إلى موسكو لتلحق به أغراها «فيلبى» وتزوجها .

ونعود إلى «بلانت» حيث لم تثبت التحقيقات ـ رغم كثرتها ـ ضلوعه فى الخيانة ، ومع ذلك أحاطت به سحابة الشكوك ، باعتباره صديقا حميما «لبورجيس» ، فعرض عليه مراقبة السوفيتى «يورى مودن» تهريبه من بريطانيا إلى شاطئ الأمان فى الاتحاد السوفيتى ، لكنه رفض ، واستجوبته المخابرات البريطانية ١١ مرة خلال السنوات التالية دون أن تقيم عليه دليلا .

فى عام ١٩٦٣م قرر أحد أتباع «بلانت» ـ وهو أمريكى اسمه «**ميشيل ستريت**» ـ أن يتقدم لوظيفة فيدرالية . ولعلمه بأن تحريات المخابرات الأمريكية عن خلفيته سوف تكشف أسرار ماضيه ، تطوع بذكر أنه انضم إلى المخابرات السوفيتية عن طريق بلانت ، وأنه أدى بعض مهام تجسس بسيطة قبل انشقاقه عن الحزب الشيوعى . تذرعت المخابرات البريطانية بهذه الواقعة وشهرتها فى وجه «بلانت» ، عارضة عليه صفقة مؤداها أن يذكر كل شئ مقابل منحه الحصانة . وافق «بلانت» على الصفقة ، لكنه لم يفصح إلا عن ما يعرف أن المخابرات البريطانية تعرفه بالفعل . كشف النقاب عن أن «**ليو لونج**» ـ وهو ضابط فى المخابرات البريطانية أثناء الحرب ـ انضم للمخابرات السوفيتية كمصدر معلومات . أكد أيضا شكوك المخابرات البريطانية فى أن «**جون كيرنكروس**» كان الرجل الخامس فى «**خلية الخمسة**» . واعترف فيما بعد كل من «لونج» و «كيرنكروس» . وأرشد «بلانت» عن ضباط المخابرات السوفيتية الذين عمل معهم ، خصوصا «ورى مودن» ، الذى يعتبر المتخصص الرئيسى فى معاملة العملاء الشواذ جنسيا . وكان «بلانت» يعلم أن أقواله ذات قيمة محدودة ، طالما أن هؤلاء الروس غادروا بريطانيا منذ زمن .

والمعروف عن «يورى مودن» أنه كان مقيما فى لندن عام ١٩٥٦م ، ولما نقل إلى «موسكو» قوبل بحفاوة تكريم المخابرات السوفيتية ، جزاء حسن قيادته للعملاء البريطانيين ، وتدبيره خطة هرب «فيلبى» إلى موسكو . سرعان ما رقى كبيرا لمعلمى الجاسوسية فى الاستخبارات السوفيتية ، درب جيلا كاملا من العملاء والوكلاء على أساليب العملاء الأجانب . وفى عام ١٩٩٠م ـ كنجم للمخابرات السوفيتية ـ كان مقصد رجال الصحافة ومقدمى برامج التليفزيون والإذاعة الشرقيين، يحدثهم عن أشهر عمليات الجاسوسية السوفيتية خاصة ما لعب فيها دوراً هاماً .

وفيما يتعلق بموضوع «بلانت» فإن المخابرات البريطانية اتفقت معه على أن يبقى تدبيرها معه طى الكتمان . لكن بعض موظفى المخابرات البريطانية انتهكوا الاتفاق الذى قصد به حسن معاملة أحد أعمدة المجتمع البريطانى ، وسربوا تفاصيل الصفقة إلى الكاتب «**أنتونى بويل**» الذى اتخذها نواة لكتابه «**الرجل الرابع**» ، فأثار عاصفة اجتاحت الرأى العام . واضطرت رئيسة الوزراء «**مرجريت تاتشر**» إلى الاعتراف علنا أن الصفقة قد عقدت بالفعل . واستمر الجدل حول ما إذا كان رجل مثل «بلانت» يستحق الحصانة ، بالرغم من عدم وجود دليل إثبات كافٍ بدون اعترافه ، لإمكان اتهامه بالجاسوسية وتقديمه إلى المحاكمة .

ومع ذلك دفع «بلانت» الثمن ، بتجريده من وسام الفروسية ، وتوجيه السباب إليه علنا فى الصحف . ولم يعد قادرا على الظهور فى الأماكن العامة ، حتى توفى عام ١٩٨٣م . وحينما سأله الأصدقاء عن دوافع خيانته وهو الرجل الذى ولد بين الحسب والنسب والثروة . فأجاب بتبرير محير ، فى قصة تاريخية مؤداها أن صوتا ناداه بأن البابا يريده .

★ أفانسى شوروخوف يعرى المخابرات السوفيتية

اسماؤه المستعارة : «**فلاديمير بيتروف**» ، و«**برولیتا رسكى**» ، و«**سڤين أليسون**» . كان معروفا لزملائه أعضاء النادى الروسى فى «**كابنيرا**» بأستراليا ، رسميا ، باسم «فلاديمير بيتروف» ، ويشغل منصب السكرتير الثالث فى السفارة السوفيتية . كان روسيا نموذجيا لا تخطئه العين . كل شئ صحيح مثال الرجل الروسى الذى يطرب لأغانى الفجر الحزينة .

وكان يجد متعة خاصة فى كل الأشياء الإسترالية ، بما فى ذلك عشقه لكرة القدم . يحتفظ بمعلومات عميقة عن تفاصيل المباريات وأساليب لعب مختلف الفرق وظروفها . أكثر من أى مواطن استرالى . وعلى غير حال الروس فى عهد ستالين عام ١٩٥٣م . كان خفيف الظل يميل إلى الفكاهة . لا يشبه فى شئ أغلب الروس الذين اعتادوا على اعتبار الإستراليين رأسماليين برابرة . كان «بيتروف» يحبهم ، وكثيرا ما كان يعبر عن إعجابه بإستراليا .

معظم أعضاء النادى لم يعرفوا كيف يستفيدون من «بيتروف» لكن عضوا واحدا جعل كل همه أن يبدأ علاقة صداقة وثيقة مع الدبلوماسى السوفيتى . لم يكن هذا بالصدفة ، فالدكتور «**ميخائيل بيالوجوسكى**» مهاجر بولندى كان عميلا للمخابرات الإسترالية ، اشترك فى النادى الروسى قبلة الدبلوماسيين الروس ، والموظفين التجاريين ، وبعض المهاجرين ، ذوى المهام الخاصة .

كانت المخابرات الإسترالية تعلم أنها وراء سمكة كبيرة ، وعرف «بيالوجوسكى» ذلك وهو يتصدى لصيد «بيتروف» . كانت وظيفة «بيتروف» الحقيقية فى «**كابنيرا**» الوكيل المقيم للمخابرات السوفيتية فى إستراليا منذ عام ١٩٥١ ، وقد تحققت المخابرات الإسترالية من أنه رجل مخابرات سوفيتى نقى . كان عمره ٤٤ سنة واسمه المستعار «**أفانسى شوروخوف**» . خدم فى أعالى البحار أكثر من ٢٠ سنة ، فى مناصب دبلوماسية ، ما بين «**بكين**» و «**ستوكهولم**» ترافقه دائما زوجته «**إيفدوكيا**» ، التى تعمل كاتبة بالمخابرات السوفيتية . كان «بيتروف» متفوقا فى أعمال الشفرة . كان قد التحق بالأسطول البحرى السوفيتى فى العشرينات من عمره ، ثم اختير للعمل فى المخابرات السوفيتية فى قمة قدراته ليعمل فى الشفرات. تدرب على يد عتاة رجال المخابرات السوفيتية على الجاسوسية وفنونها ، وأصبح جاسوسا نادرا قادرا على أداء دوره فى غرفة الشفرة ببراعة .

وصلت سمعته إلى المخابرات الاسترالية كواحد من أعلى جواسيس المخابرات السوفيتية ، فأيقنوا أن «بيتروف» تم نقله إلى استراليا لإحياء شبكة العملاء الناجحة التى كانت هناك خلال الحرب ، وأغلب أعضائها من الشيوعيين وخلاصة صفوة المتعاطفين مع الشيوعية . بدأ العملاء بعد الحرب ينفضون بسبب نشاط الحرب الباردة التى شنها أعداء الشيوعية . والآن تريد المخابرات السوفيتية بعث شبكتها من جديد .

كانت خطة المخابرات الاسترالية تقضى بدفع «بيالوجوسكى» ليظهر بسرعة كمهاجر مؤيد للسوفييت ، ويلتحم مع بيتروف فى مناقشات سياسية ثم يجره بعيدا عن ميوله السياسية الحقيقية . ولشد ما كانت دهشة «بيالوجوسكى» حينما وجد أن آخر ما يريده «بيتروف» هو أن يسمع أى شئ فيه مناصرة للسوفييت كلما تقرب من صديقه الجديد «**فولوديا**» ـ اللقب الذى يحبه فيتروف ـ بدأ يفتح له قلبه . الواقع أن «بيتروف» كان يمر بعملية تحرر من وهم التجسس . اتخذ الخطوة الأولى فى الكشف عن تحرره لصديقه الجديد بيالوجوسكى . وقال له فى الوقت نفسه إن زوجته «**ايفدوكيا**» تحررت أيضا . المشكلة هى أن «موسكو» لا تقبل الاستقالة .

كان «بيتروف» حريصا على ألا يشير إلى وظيفته الحقيقية كرجل المخابرات السوفيتية المقيم فى استراليا . كانت مشكلته مزدوجة : **الأولى** لأنه مكلف بمهمة مستحيلة فمن العبث إعادة شبكة الجاسوسية السوفيتية فى استراليا إلى سابق عهدها طالما فى استراليا جهاز مخابرات بهذا النشاط ، ولا أمل فى أى تحسن سريع . بينما موسكو تطلب نتائج سريعة . لكن تنفيذ أوامر المخابرات السوفيتية وإعادة بناء شبكة ناجحة قد يتطلب عشرات السنين . **والثانية** الأكثر شؤما هى أن «**لافنتيرى بيريا**» أعدم عام ١٩٥٣ بعد محاولة الاستيلاء على السلطة فى أعقاب وفاة ستالين ، وبدأ التخلص من أعوان «بيريا» فى الرتب العليا بالمخابرات السوفيتية ، وعرف «بيتروف» أن رجال المخابرات السوفيتية ذوى الفعالية فى جميع أنحاء العالم طُلب منهم العودة إلى «موسكو» حيث تلقوا رصاصة فى الرأس من الخلف . شعر «بيتروف» بخطر من نوع خاص ، ذلك أن «بيريا» كان قد لاحظ مواهبه وقدر أعماله قبل عدة سنوات ، واختصه بترقية استثنائية . والآن أصبح هذا التقدير إنذاراً بالموت ، باعتبار أن رجال التطهير قد يعتبرون «بيتروف» أحد صبية «بيريا» .

أدرك رجال المخابرات الاسترالية أن الفرصة قد حانت ، وصدرت الأوامر لـ«**بيالجوسكى**» لفتح موضوع الارتداد مع «بيتروف» . وفى أبريل ١٩٥٤م زالت من ذهن «بيتروف» آخر بقايا الاعتراض ، حينما استلم الدعوة الرهيبة للحضور إلى «موسكو» للتشاور . اضطر إلى اتخاذ قرار فى الحال . فقرر الارتداد ، على أن تتبعه زوجته فيما بعد ، فاتصل بصديقه «بيالجوسكى» ، وهرب فى أمان لكن المخابرات السوفيتية اعتقلت زوجته «**إيفدوكياش**» فى اللحظة التى اكتشفت فرار «بيتروف»

من السفارة ، قبل أن تهرب هى من المبنى . واختفى الرجل فى أحد بيوت المخابرات الإسترالية الآمنة .

هنا بدأت واحدة من أدهش صفحات تاريخ جاسوسية الحرب الباردة . قررت المخابرات السوفيتية ترحيل زوجة «بيتروف» إلى موسكو بأسرع ما يمكن . القصد من ذلك هو الاحتفاظ بها رهينة فى موسكو لثنى زوجها عن كشف الكثير من أسرار المخابرات السوفيتية إلى المخابرات الاسترالية . فقد كانت موسكو تعلم أن «بيتروف» واحد من أهم جواسيسها ، وأن لديه قدراً عظيماً من المعلومات المخزونة فى رأسه ، والتى إذا باح بها أصاب روسيا بكارثة ، وما يعرفه عن شفرة المخابرات السوفيتية وحدها يمكن أن يشكل نكبة حقيقية .

أرسلت المخابرات الروسية طائرة إلى استراليا لنقل زوجة «بيتروف» مع ثلة من حرس المخابرات السوفيتية ، لديهم أوامر بإعادتها إلى موسكو بالقوة وبأى ثمن إذا استدعت الظروف . من الناحية القانونية ، لم يكن بمقدور استراليا أن تمنع سفر زوجة «بيتروف» ، لأنها مواطنة سوفيتية . لكن المخابرات الاسترالية اهتدت إلى خطة لا تنقذها فقط ، وإنما تسدد لكمة فى عين المخابرات السوفيتية .

كان الاستراليون يعرفون أن الطائرة ستتزود أثناء عودتها بالوقود من «**دارون**» فى استراليا ، لذا أعلنت المخابرات السوفيتية ذلك الخبر على وسائل الإعلام . وحينما هبطت الطائرة فى المطار ، وجدته مكتظا بمندوبى الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون ووكالات الأنباء والمصورين ، كلهم جاءوا لتغطية القصة التى لا تقاوم: قصة زوجة متيمة بحب زوجها الدبلوماسى السوفيتى المرتد ، ترغمها حكومة الاتحاد السوفيتى على فراق زوجها ، والعودة إلى موسكو .

تسبب نشاط الإعلاميين فى هرج ومرج وارتباك ، أوقع رجال المخابرات السوفيتية فى عدة أخطاء . أصدر موظفو الهجرة والجوازات الاستراليون أمرا للحراس السوفييت بمغادرة الطائرة مع زوجة «بيتروف» ، فأطاعوا الأمر رغم عدم وجود سبب قانونى لتنفيذ مثل هذا الأمر . بعدها طلبوا منهم الذهاب إلى مبنى المطار ، وهناك فصل رجال المخابرات الاسترالية بينهم وبين زوجة «بيتروف» ودسوا فى أذنها مستقبل تليفونى . على الطرف الآخر كان زوجها يطلب منها أن تطلب اللجوء السياسى لاستراليا لتكتسب الحماية ، فأعلنت على الملأ أمام رجال الإعلام قائلة :

« لا أريد العودة إلى موسكو » وهكذا أعطت السلطات الاسترالية مبررا قانونيا كافيا لاستخلاصها من سيطرة حراسها السوفييت .

ارتكب حراس المخابرات السوفيتية آخر وأسوأ أخطاء الواقعة الدرامية . حاولوا تنفيذ الأمر الصادر لهم في موسكو بإعادتها مهما تكن الظروف ، أحاطوا بها وحاولوا إجبارها على دخول الطائرة . تدخل الاستراليون ، وأمروا حراس المخابرات السوفيتية وطائرتهم بمغادرة البلاد فورا .

حدثت هذه الفضيحة تحت سمع الإعلاميين وبصرهم . وحملت الصحف في جميع أنحاء العالم صور السيدة «بيتروف» الغاضبة المهتاجة ، وهي تقاوم اثنين من أجلاف الحرس السوفيتي ، يرتدون ملابس لا تناسبهم مقاساتها ، وأحذية غليظة النعال . كانت كارثة علاقات عامة للمخابرات السوفيتية ، خصوصا وأن ذلك حدث في وقت تحاول فيه الحكومة السوفيتية إقناع العالم بنواياها السليمة . وإذا بصحافة العالم تعرض في صفحاتها الأولى الوجه الحقيقي للشيوعية السوفيتية وبناء عليه ثارت ثائرة زعماء المخابرات السوفيتية ، فنفت إلى معسكرات العمل في «**سيبيريا**» ستة وكلاء لهم علاقة بالكارثة ، لكن ماذا يفيد العقاب بعد وقوع النكبة ؟ .

ولما شعر «بيتروف» وزوجته بالأمان بين ظهراني الاستراليين ، سددا ضربة موجعة للمخابرات السوفيتية . كان بيتروف محتفظا بنسخ من التقارير التي أرسلها إلى موسكو منذ عام ١٩٥٢م . وقد كشفت هذه عن عملاء استراليين من الدرجة الوسطى ، أمكن اعتقالهم فورا . وقد استفاد الاستراليون أكثر من نظام شفرة المخابرات السوفيتية الذي زودهم به «بيتروف» ، واستفادت منه أيضا أيما استفادة ، كل من المخابرات الأمريكية ، والمخابرات البريطانية .

أسفر استجواب «بيتروف» عن بعض المفاجآت . منها إفشاؤه أن «جاي بورجيس» و «دونالد ماكلين» ، الدبلوماسيين البريطانيين ، الذين هربا إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٥١م ، كانا في الحقيقة خائنين لبلادهما زرعتهما المخابرات السوفيتية قبل ٢٠ سنة .

قال لمستجوبيه أيضاً إن «فيلبي» كان موضع شك آنذاك ، وكانت المخابرات السوفييتية تعتبره جوادها الرابح بين الخونة البريطانيين ، وكانوا قد جندوه عام

١٩٣٤م . وكان الحلقة الأولى فى سلسلة أجبرت فيلبى على الفرار نحو الشرق .

حينما انتهت كل الاستجوابات ، ووصلت فائدته لمخابرات الغرب إلى نهايتها ، استقر «بيتروف» فى حياة مختلفة تماما ، كمواطن استرالى ، اختار لنفسه اسما جديدا هو «**سفين أليسون**» مهاجر اسكندنافى . ألف «بيتروف» وزوجته كتابا عن تجاربهم ، وافتتحا متجرا عاماً صغيراً ، أداراه حتى توفيت «إيفدوكيا» عام ١٩٩٠م، ثم لحق بها زوجها عام ١٩٩١م .

★ أناتولى جولستين عبقرى أم مجنون؟

دفع ضباط مكافحة الجاسوسية أكوام الأوراق على المكتب أمام الرائد «**أناتولى جوليتسين**» الضابط بوكالة المخابرات السوفيتية ، وقيل له : «نرجو فرز هذه التقارير، وإبلاغنا أيها استرعى انتباهك فى موسكو» .

جلس صائدو الجواسيس من بريطانيا وأمريكا وفرنسا صامتين ، بينما الرجل الذى كنيته «**تولكا**» يقرأ الأوراق . وكما فهم كل الرجال الموجودون فى الغرفة ، كان ذلك اختبارا لصبغة عباد الشمس بالغ الأهمية .

حدث ذلك فى يناير ١٩٦٢م ، قبل أسابيع قليلة من هرب «جوليتسين» إلى المخابرات الأمريكية ، من وظيفته كوكيل مخابرات مقيم فى «**هلسينكى**» بفنلندا . زعم أن لديه كمية معلومات مذهلة عن عمليات المخابرات السوفيتية فى جميع أنحاء العالم ، وقال إنه يريد أن يكافح وحده الجاسوسية ، ويقتلع جذور الخونة الذين يعملون لحساب المخابرات السوفيتية . وكعينة من معلوماته المهمة ، أخبر مستجوبيه أنه قرأ وثيقة سرية للغاية عن «الناتو» ، أثناء عمله فى موسكو قبل سنوات، لأن عملاء المخابرات السوفيتية يزودون موسكو تباعا ، بكل قرارات «**الناتو**» عالية المستوى بمجرد نسخها .

إذا كان ذلك صحيحا ، فإنه يعنى أن المخابرات السوفيتية اخترقت منظمة حلف الأطلنطى ، وأنه أصبح كتابا مفتوحا . بعض مستمعيه اعتبروا كلامه ضربا من المبالغة ، الغرض منه تفخيم نفسه ، وهذا أمر شائع بين المرتدين والهاربين اللاجئين سياسيا . يبالغون فى تقييم معلوماتهم ، وإضفاء الأهمية القصوى عليها ، ليعزز مركزه ، ويؤهل نفسه للحصول على مكافآت ومعاشات مجزية ، تدفعها وكالات مكافحة الجاسوسية للمصادر المفيدة .

لإمكان اختبار دعوى «جوليتسين» اختراق المخابرات السوفيتية لحلف «الناتو» ، تقرر أن تعرض عليه وثائق كثيرة ، ومن بينها عدد من الأوراق المزيفة بمهارة ، فإذا كانت لديه المعلومات التى ادعاها ، فإنه يستطيع تحديد الاختلاف . أدهش مشاهديه أنه عامل الاختبار كما يعامل طفل لعبته .

صاح قائلا : «هذا مستند زائف» قال ذلك بلكنته السلافية الثقيلة ، وهو ينحى جانبا وثيقة زائفة . وتمكن «جوليتسين» من فرز الوثائق خلال نصف ساعة ، مستبعدا الزائفة منها دون أدنى خطأ . ولما سئل عن كيفية إنجاز المهمة بهذه السرعة الفائقة ، قال «جوليتسين» : «الأمر فى غاية البساطة . ألم أقل لكم أنى قرأت هذه الوثائق من قبل فى موسكو؟» .

بالنجاح فى هذا الاختبار ، دخل «أناتولى جوليتسين» أسطورة الجاسوسية خلال العامين التاليين ، كشف النقاب عن كثير من وكلاء وعملاء المخابرات السوفيتية فى العالم الغربى محدثا قائمة خسائر لم يتسبب فى مثلها هارب آخر من المخابرات السوفيتية . وبمضى الوقت لم تقتصر أضراره على المخابرات السوفيتية ، بل تسبب أيضا فى إضرار لوكالات المخابرات الغربية .

لم يكن فى خلفية «جوليتسين» أى شئ يشير إلى قيامه بدور هدام بأى شكل من الأشكال ، فيما عدا دوره ضد المخابرات السوفيتية . ولد عام ١٩٢٦م لأسرة ريفية عملها الزراعة فى «أوكرانيا» . سجله يؤكد أنه من رجال المخابرات السوفيتية المخلصين : تخرج فى المدرسة العسكرية ، حصل على عضوية حركة الشباب فى الحزب الشيوعى ، والتحق بمدرسة المدفعية ، وحصل على عضوية الحزب الشيوعى، وانتقل إلى فرقة مكافحة الجاسوسية العسكرية ، ثم جند أخيرا بواسطة المخابرات السوفيتية . كان مرضيا عنه ، وإلا لما ألحقته المخابرات السوفيتية بمدرسة المخابرات العليا ، المدرسة التى تعد أصحاب المراكز العالية فى سلك الجاسوسية . وفى عام ١٩٥٣م نقل إلى «فينا» حيث توجد واحدة من أهم المحطات الخارجية . وبعد عامين عاد إلى مركز المخابرات السوفيتية فى موسكو ، ليشغل وظيفة ضابط فى إحدى المناطق الحساسة ، وهى الإدارة الأنجلو ـ أمريكية ، حيث رأى وثائق «الناتو» السرية، أثناء تعرفه على حالات اختراق مخابرات الخصوم . وفى عام ١٩٦١م نقل إلى «**هلسنكى**» حيث إحدى أهم محطات المخابرات السوفيتية .

ومع تساقط الجليد ذات مساء من أمسيات ديسمبر ، لجأ إلى سفارة الولايات المتحدة الأمريكية مع زوجته وابنته البالغة من العمر سبع سنوات ، وهناك أعلن رغبته فى اللجوء السياسى .

كان «جوليتسين» يجهل أن المخابرات الأمريكية لم تفاجأ تماما بلجوئه السياسى. قبل سبع سنوات لجأ إلى السفارة الأمريكية فى «ڤينا» ضابط مخابرات سوفيتى اسمه «**بيتر ديريابن**» وطلب منه أثناء استجوابه تحليل شخصيات كل رجال المخابرات السوفيتية الآخرين الذين يعرفهم فى «ڤينا» ، ومن منهم يحتمل ارتداده وفراره مستقبلا بنفسه أو بمجهود تبذله المخابرات الأمريكية . رشح «ديريابن» للجوء السياسى مستقبلا ضابط المخابرات السوفيتية «**جوليتسين**» ، رغم خلو سجله من أى شائبة . وقال إنه متعجرف ، يبالغ فى طموحاته ميال إلى إثارة غضب رؤسائه . وحينما كان فى موسكو قبل سنوات ، اقترح خطة لإعادة تنظيم البناء الإدارى والوظيفى للمخابرات السوفيتية بأكمله . وطبقا لهذه الخطة ، وضع نفسه فى منزلة ما قرب قمة الجهاز . وأضاف «ديريابن» أن «جوليتسين» مثير للشغب ومعروف عنه أنه مصدر خطر . وتنبأ «ديريابن» بأن طموحات «جوليتسين» سوف تنفجر فى يوم ما ، فيلجأ سياسيا إلى الجانب الآخر .

واتضح أن «ديريابن» كان على حق ، وأن «جوليتسين» رجل مخابرات متقلب، اشترك فى لعبة الجاسوسية لما فيها من إثارة ومغامرة وخداع ، ولا يهمه إذا كان يعمل للمخابرات الروسية أو الأمريكية أو البريطانية ، ما دام يلعب دوراً رئيسياً . وبفضل اشتغاله فى الشعبة الأنجلو أمريكية بوكالة المخابرات السوفيتية ، جمع «جوليتسين» معلومات غزيرة عن كثير من عملاء روسيا فى الغرب ، ومن بينهم «**هـ.ر. فيلبى**» الذى حدد أنه خائن منذ زمن طويل ، لصالح روسيا . لقد كان «جوليتسين» سبب المواجهة النهائية بين المخابرات البريطانية و «فيلبى» ، الذى أدرك أنه لن يستطيع دفع التهمة عنه ، فهرب إلى وراء الستار الحديدى .

بدأ «جوليتسين» الإطاحة بعملاء سوفييت آخرين ، منهم ثلاثة اخترقوا وكالات مكافحة الجاسوسية . من المتورطين «**جون فاسال**» ، يعمل كاتبا فى الأدميرالية البريطانية ، جندوه عام ١٩٥٣م عندما نقل إلى موسكو . اصطادوه فى عملية ما تسمى «**مصيدة عسل**» دبرتها المخابرات السوفيتية للإيقاع به متلبسا ، وهددوه

بعرض الصور التى التقطوها له أثناء «مصيدة عسل» ، على رؤسائه ، ما لم يوافق على العمل فى خدمة المخابرات السوفيتية . زود «فاسال» المخابرات السوفيتية بقدر كبير من المواد التى مرت على مكتبيه ، خاصة وأنه يعمل بشعبة المخابرات البحرية البريطانية ، ورأى تقارير هامة كثيرة .

فى عملية «مصيدة عسل» مشابهة ، أوقعت المخابرات السوفيتية بدبلوماسى كندى أيضا ، اسمه «**جون واتكنسى**» ، وافق على العمل لهم ، حينما انتقل إلى موسكو سفيرا لكندا عام ١٩٥٨م . وكان بحكم مركزه قادرا على الحصول على رسائل دبلوماسية رفيعة المستوى ، من كندا والدول الأخرى . بل إنهم استطاعوا عن طريقة كسر شفرة الدبلوماسية الغربية .

أما **الثالث** والأهم ، فهو «**جورج باكس**» ، وهو الملحق الفرنسى بحلف «الناتو» ، شيوعى سرى جندوه عام ١٩٤٦م . وقد زودهم بمواد عالية المستوى ، من قيادة حلف «الناتو» ، والحكومة الفرنسية وذكر «جوليتسين» أن «باكس» كان مجرد فرد من سلسلة خونة كبيرة تعمل فى خدمة المخابرات السوفيتية ، اخترقت كل مستويات الحكومة الفرنسية تقريبا . كانت تصريحات «جوليتسين» مزعجة إلى حد بعيد . كتب الرئيس الأمريكى «**كينيدى**» شخصيا إلى الرئيس الفرنسى «**شارل ديجول**» ، يحذره من العمليات التى تقوم بها خلية اسمها الحركى «**سافير**» ، وهى تابعة للمخابرات السوفيتية . بذلت الوكالة الفرنسية لمكافحة الجاسوسية جهودا مضنية فى ملاحقة هذه الخلية . وكانت هذه الملاحقة موضوع رواية «**ليون يوريس**» وفيلم «توباز» الذى انتجه «**الفريد هيتشكوك**» .

فى أواخر عام ١٩٦٣م جرد «جوليتسين» نفسه من كل ما يعرفه تقريبا عن اختراقات المخابرات السوفيتية فى الغرب ، ثم تحرك إلى مهمة ثانية أكثر إثارة للجدل، وتنطوى على أمور لا يملك لها معلومات ثابتة صلبة ، لكنها مثيرة للشك ، بما يكفى لإثارة فضول مضيفيه من رجال مكافحة الجاسوسية . أما هذه الأمور فهى : اختراق المخابرات السوفيتية لخدمات المخابرات الغربية .

أشاعت ملاحظات «جوليتسين» الأولى عن خونة المخابرات الغربية لصالح المخابرات السوفيتية رنينا معينا فى بريطانيا ، حيث توجد زمرة من ضباط المخابرات البريطانية يتزعمهم «بيتر رايت» و «آرثر مارتن» ، اقتنعوا وقتا طويلا بأن المخابرات

البريطانية مصابة باختراقات سوفيتية ، كما أنهم يعتقدون أن الاختراق أصاب مستوى عال جدا ، فهو إما شخص عظيم خائن ، أو عدة خونة يحتلون مناصب ممتازة ، ويشكلون خلية الخمسة ، وهم مسئولون بالتالى عن بؤس سجل المخابرات البريطانية خلال العشرين سنة الماضية خلال الحرب الباردة .

أعارت المخابرات الأمريكية «جوليتسين» للمخابرات البريطانية ، للعمل فيما أصبح بعد تفتيشا داخليا كبيراً سمى «**فلوينسى**» . ولما كان مشهورا ببخله وحبه للمال ، فقد دفعت له بريطانيا ٢٨٠٠٠ دولار شهريا مقابل العمل مستشارا لعملية «فلونيسى» التى تختص أساسا بإعادة النظر فى عمليات المخابرات البريطانية ، وتفاصيل الاختبارات التى أجريت بناء على ما كشفه اللاجئون السياسيون من المخابرات السوفيتية . وذلك فى محاولة لتحديد الرجال الذين يعملون كألغام لتدمير الوكالة البريطانية لمكافحة الجاسوسية .

كان على «جوليتسين» أن يضع فى اعتباره أمورا كثيرة . قبل أكثر من ٢٠ سنة، حذر ضابط مخابرات سوفيتى كبير لجأ إلى بريطانيا ـ اسمه «والتر كريفيتسكى» ـ من وجود خونة فى المخابرات البريطانية لصالح المخابرات السوفيتية . وعلى الرغم من أنه لم يحدد أسماءهم ، إلا أنه قدم عددا من الإشارات وعلى سبيل المثال : قال إنه سمع عن «**سكوتلندى كريم المولد**» ، كان يعمل فى وزارة الخارجية ، وعن «شخصية حكومية» كان يعمل صحفيا فى أسبانيا . لو أن المسئولين بذلوا جهودا متوسطة فى تتبع هذه الإشارات ، لاهتدوا إلى «**دونالد ماكلين**» و «**هـ.ر. فيلبى**» ، لكن المسئولين لم يبذلوا أدنى جهد . وبالمثل عاملوا موضوع «إيجور جوزينكو» بطريقة غامضة وإهمال غير مبرر . وتجاهلت المخابرات البريطانية تحذيره من وجود خائن بين صفوفها يعمل لصالح المخابرات السوفيتية . وعلاوة على ذلك الغموض الذى أحاط بإخلاء ذمة عملاء للسوفييت مشهورين ، مثل «**كلاوس فوشز**» و «**ألان فان مای**» ، رغم ثبوت عضويتهما فى الحزب الشيوعى . والمعروف أن اختراق الخيانة لصفوف المخابرات البريطانية شلت حركتها خلال السبعينات . وقد اعترف «**أنتونى بلانت**» ، وأعلن اسمى عميلين . لكن أحدا لم يهتد إلى السمكة الكبيرة . وكان «رايت» مقتنعا بأن مدير المخابرات البريطانية «**روجر هوليس**» هو ذاته الخائن الأكبر ، لكن عملية «فلوينس» برأته .

انتهت مهمة «جوليتسين» فى بريطانيا بنشر إحدى الصحف تقريرا عن عملية «فلوينسى» . وحينما عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية مر تحت إشراف رئيس مكافحة الجاسوسية المعادية ، الرجل الأسطورى «**جيمس انجليتون**» .. زعم جوليتسين للمخابرات الأمريكية ، وأصر بعناد ، على وجود اختراق روسى فى المخابرات الأمريكية على مستوى عالٍ . وقال إن الخائن «الرفيع» يحمل اسما مستعارا هو «ساشا» ، وأنه يعزز أعمال خونة آخرين ويدعمهم .

شرع «انجليتون» فى تفكيك المخابرات الأمريكية أجزاء بحثا عن الخائن الأعظم، تحثه ملاحظات «جوليتسين» اللاذعة ، التى كانت توحى بأنه لا يمكن الوثوق بأى شخص فى الشعبة الروسية بالوكالة الأمريكية ، خصوصا الذين يتحدثون باللغة الروسية .. وبناء عليه شلت عمليات المخابرات الأمريكية ضد الاتحاد السوفيتى ، بينما أفسد الشك أعمال أكثر من ١٠٠ ضابط استخبارات أمريكى . بلغت هذه المطاردة مداها عام ١٩٦٤م ، حينما سجن ضابط مخابرات سوفيتية آخر بدون وجه قانونى . لجأ سياسيا إلى أمريكا . اسمه «**يورى نوسينكو**» ، أمضى فى السجن ثلاث سنوات ، لأن «جوليتسين» أخبر «أنجليتون» أن «نوسينكو» مزروع من قبل المخابرات السوفيتية لإثارة الفتنة والفوضى . وقال «نوسينكو» لمستجوبيه إنه لا وجود لخائن فى المخابرات الأمريكية ، وإنه ـ على عكس ما قال «جوليتسين» : ليس للمخابرات السوفيتية مصلحة فى عملية قيام «**لى هارفى أوزوالد**» بقتل الرئيس كينيدى، وليس صحيحا أنها أعدته للمهمة الدموية حينما كان يعيش فى روسيا .

انتهى نفوذ «جوليتسين» عام ١٩٧٤م ، حينما فضل «أنجليتون» انكشاف دوره فى عملية تجسس داخلية للمخابرات الأمريكية غير قانونية . ظل لجوليتسين أنصار فى المخابرات الأمريكية والبريطانية ، على استعداد لمساعدته فى إنتاج «**التحفة الفنية**» ، وهو كتاب مخطوط ، من مليون كلمة، يغير رأى الغرب فى العالم ، ويقلبه رأسا على عقب . حاول الاستعانة بكتاب محترفين لتحويل ما كتبه إلى كتاب صالح للقراءة ، لكنهم جميعا رفضوا . فما كان من أنصاره فى المخابرات الأمريكية والبريطانية إلا أن اجتمعوا ولخصوا المخطوط فى كتاب عنوانه «**أكاذيب جديدة للمسنين**» . ونشروه لكنه اختفى دون أن يخلف له أثرا .

تلاشى «جوليتسين» من مسرح المخابرات . توفى أو اعتزل معظم أنصاره

وأصدقائه على جانبى الأطلسى ، بما فيهم «أنجليتون» . وفى عام ١٩٩٠م كان «جوليتسين» يعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية تحت اسم مستعار ، وحينئذ ادعى أن انهيار الشيوعية فى أوروبا الشرقية كان ـ فى الحقيقة ـ جزءا من عملية خداع سوفيتية طويلة المدى . وفيما عدا البقية الباقية من أنصاره . لم يجد «جوليتسين» من يعير رأيه أدنى اهتمام .

★ فلاديمير ا. فيتروف مريب قال خذونى

لم تكن جريمة القتل شائعة الحدوث فى موسكو خلال فبراير ١٩٨٢م ، لذا أدرك رجال الشرطة أنهم يواجهون حالة غير عادية ، حينما وصلوا إلى الحديقة العامة وشاهدوا جثة الرجل مطعونة حتى الموت ، والمرأة مصابة بجروح بالغة ، وتأكدوا من أن الحالة أكثر غرابة حينما عرفوا أن القتيل ضابط كبير بالمخابرات السوفيتية وأن المرأة المصابة سكرتيرة بها .

وبمعنى آخر : كانت حالة مشحونة بتعقيدات سياسية . واستطاعت الشرطة بالكاد فهم هذه التعقيدات ، حينما حضر بعد ساعة من وصول الشرطة إلى مسرح الجريمة ، حشد من رجال المخابرات السوفيتية ، ومن بينهم كولونيل اسمه «**فلاديمير فيتروف**» ، يبلغ من العمر ٥٤ عاما . أشارت السكرتيرة المصابة إليه ، وأعلنت أنه القاتل الذى طعن القتيل حتى الموت وحاول قتلها . قبض رجال الشرطة عليه ، وعثروا على سكين ملوثة بالدماء فى جيبه .

كانت إحدى جرائم الانفعال الإنسانى التى يبتلى بها المجتمع الإنسانى بين حين وآخر ، ولم يسلم منها مجتمع المخابرات السوفيتية ، الذى حاول بشق الأنفس التعتيم على أخبارها . أدلى «فيتروف» باعتراف مفصل ، ذكر فيه أن علاقة صداقة كانت تربطه بسكرتيرة المخابرات السوفيتية . وفى ذات ليلة أوقف سيارته فى الحديقة العامة ، وكانت السكرتيرة معه ، وفجأة جاء ضابط مخابرات سوفيتية آخر كان يتمشى فى الحديقة ، وطرق على نافذة السيارة . كان قد عرف رفاقه فى العمل ، وأراد أن يلقى عليهما التحية . لكن «فيتروف» أصيب بالذعر لسبب مجهول ، ربما افترض أن رجل المخابرات السوفيتية على وشك اعتقاله . فاستل السكين ، وأوسعه طعنا حتى الموت . ولما حاولت السكرتيرة الهرب من مسرح الجريمة ، تعقبها «فيتروف» وكال لها الطعنات ، ثم ترك المكان معتقدا أنها توفيت ، لكنه

عاد بعد ساعة للتأكد من وفاة الضحيتين .

ارتابت عقول رجال المخابرات السوفيتية المضادة للاستخبار الأجنبى ، فى هذا المشهد الدرامى . لماذا انزعج «فيتروف» عندما رأى ضابط مخابرات آخر؟ . ما حقيقة الأمر بينه وبين هذا الضابط ذى الرتبة العالية؟ تحت أى ضغط رهيب ارتكب جريمته؟ .

لم تصل المخابرات الروسية إلى إجابات فورية ، فقررت أن تضع «فيتروف» تحت مراقبة شديدة . وجهت إليه تهمة القتل ، وحكم عليه بالسجن ١٢ عاماً . ووضع تحت رقابة مشددة من المخابرات السوفيتية على أعماله وتحركاته ، مع مراقبة ما يرسله من خطابات وما يصل إليه من بريد . وأخيرا وجدوا مفتاحا لسر الجريمة . كتب «فيتروف» فى رسالة لزوجته إن جريمة القتل أجبرته على التخلى عن «شئ كبير» .

بدأت المخابرات السوفيتية تضيق الخناق على «فيتروف» . لا يعرف أحد ما إذا كان قد عومل بأدوات التعذيب الجهنمية أم لا ، ولكن النتيجة كانت وثيقة كتبها بخط يده ، وجعل عنوانها «**اعتراف خائن**» . كانت الوثيقة بمثابة صدمة محزنة للمخابرات الروسية ، لأن فيتروف صرح فيها بأنه خان بلاده لحساب المخابرات الفرنسية عدة سنوات . والأسوأ من ذلك أنه أفشى أعظم أسرار وكالة الاستخبارات السوفيتية .

أول صدمة هى أنهم كانوا يعتبرون «فيتروف» من أكثر ضباط المخابرات السوفيتية ولاء والتزاما وإنجازا .. فكيف به يخون وطنه؟ كان مهندسا نابغة ، جندوه للمخابرات بعد تخرجه مباشرة ، وكلفوه بمهمة تأسيس أكثر وحدات المخابرات السوفيتية سرية ، وهى المعروفة باسم «**خط إكس**» ، ومهمتها لا تقل عن إنقاذ الاتحاد السوفيتى . فى عام ١٩٦٤م حينما تم إنشاء «خط إكس» ،كانت المخابرات السوفيتية ، واللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى ، يعرفان أنهما يخسران الحرب الباردة لصالح الغرب . والمسألة مسألة التكنولوجيا . كان النظام السوفيتى يتأخر أكثر وأكثر وراء الغرب فى كل مجالات التكنولوجيا والعلوم ، خاصة التكنولوجيا العسكرية . أبلغ علماء الكمبيوتر السوفييت اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى أن تكنولوجيا السوفييت وراء الولايات المتحدة الأمريكية بما لا يقل عن ٣٠ سنة ، وأن الفجوة

تتسع بمرور اللحظات . والنتيجة الطبيعية لذلك هى أن يتأخر الاتحاد السوفيتى ، وتفوز التكنولوجيا الغربية باليد العليا ، ويتحول الاتحاد السوفيتى إلى نمر من ورق .

كان الاقتصاد السوفيتى ضعيفا ، والقاعدة الصناعية العسكرية أضعف ، ولا أمل للسوفييت فى اللحاق بمسيرة الغرب ، فاتجهوا إلى إعادة صياغة المخابرات السوفيتية، وتوجيهها نحو سرقة كل قطعة تكنولوجيا غربية تقع تحت أيديهم . وكان على «خط إكس» لكى يقوم بهذه العملية الجديدة ، أن يجند جيشا جديدا كاملاً من الجواسيس المهندسين ، والفنيين ، والعلماء ، الذين يعرفون صيدهم وكيف يحصلون عليه .

نجح «خط إكس» ببراعة . وخلال عام واحد سرقت المخابرات السوفيتية أكثر من ٥٠٠٠ عينة صناعية من الاتحاد السوفيتى ودول غربية أخرى . اندهش الخبراء العسكريون الغربيون للسرعة التى حصل بها السوفييت على أكثر التكنولوجيات تقدما وأدخلوها فى تصميماتهم . واستطاع «خط إكس» بالتعاون مع المخابرات السوفيتية شراء ما تعذر عليهم سرقته . وعرفت وكالات المخابرات الغربية تدريجيا عمليات نقل تكنولوجيا ضخمة إلى الكتلة الشرقية بمختلف الطرق ، بما فيها رشوة المهندسين والعلماء وموظفى الجمارك ، وشراء خرائط التصميمات .

ورغم هذه النجاحات ، كان «لفيتروف» شكوكه وآراؤه الخاصة . كان يفكر فى المواطن السوفيتى العادى . وكان يتمنى دائما أن يرفع التقدم التكنولوجى مستوى معيشة شعب روسيا . لكنه رأى محطات الفضاء السوفيتية تطوف حول الأرض ، والآلة الحربية السوفيتية تنمو شيئا فشيئا ، بينما الشعب لا يحظى بنصيب من التقدم . كان الاتحاد السوفيتى دائم القلق على قوته العسكرية ، يصب أكثر ما يمكن من دخله فى اقتناء السلاح ، وبينما الصواريخ السوفيتية الجبارة تتعاظم أمام الكرملين فى مايو كل عيد عمال حين يقام المهرجان الضخم والعرض العسكرى الكبير ، كان أفراد الشعب الروسى يقفون صفوفا طويلة فى الطرقات ، فى عرض شعبى آخر ، لكن لشراء رغيف الخبر أو كسرة منه .

احتفظ «فيتروف» لنفسه بهذه الشكوك . وفى عام ١٩٦٥م انتدب فى مهمة إلى باريس ليفتش على عمليات «خط إكس» فى غرب أوروبا . بدأ يلاحظ الفرق البين الواضح بين المواطن الفرنسى العادى ونظيره الروسى . حتى أفقر الأسر

الفرنسية كانت تعيش عيشة أرقى وأوفر نعمة . نمت شكوكه ، وعلمت بها المخابرات الفرنسية من خلال لقاء غير متوقع لكنه أثبت أنه خطير .

تورط «فيتروف» ذات يوم فى حادث سيارة خطير . لم يصب بسوء ، لكن سيارة الرجل الفرنسى التى صدمها أصبحت حطاما . وبشهامة نادرة عرض الرجل الفرنسى أن يدفع كل تكاليف الأضرار ، ورتب أمر الإصلاحات . ونشأت صداقة حميمة بينه وبين «فيتروف» الشاكر ، وبدأ الرجل الروسى يتحدث عن شكوكه بصراحة .

ما لم يكن يعرفه «فيتروف» ، هو أن الرجل الفرنسى الذى زعم أنه رجل أعمال، كان عميلا لوكالة المخابرات الفرنسية المضادة للجاسوسية . عرفت هذه الوكالة أن «فيتروف» لم يكن مجرد دبلوماسى بسيط كما زعم ، لذا تساءلت عن كيفية استغلال عدم رضاه عن الأوضاع فى بلاده ، وقررت أن تعامله بحذر شديد، لأن تحرياتهم عنه أقنعتهم أنه ضابط مخابرات سوفيتى على درجة عالية ، يحتمل ضلوعه فى عمليات سرقة تكنولوجيا . وعلى حد علم المخابرات الفرنسية ، كانت فرنسا آنذاك تنزف أسرار أكثر تكنولوجيتها حيوية وأهمية ، لذا رأت أن تجنيد «فيتروف» يوقف هذا النزيف .

فى عام ١٩٧٠م انتهت جولته فى فرنسا ، فاستدعوه إلى موسكو للعمل فى مقر قيادة المخابرات السوفيتية . ظل صديقه رجل الأعمال الفرنسى على اتصال به ، لكنه لم يحاول تجنيده مباشرة . واكتفى ـ فقط ـ بجعله على يقين من أن له صديقاً فى فرنسا . يستطيع فى أى لحظة أن يخدمه . وكوفئت المخابرات السوفيتية على صبرها عام ١٩٨٠م ، حينما كتب «فيتروف» عبارة حذرة فى خطاب إلى صديقه الفرنسى ، يطلب منه مقابلة عاجلة فى «موسكو» .

وأخيرا تحرك «فيتروف» . حدث اللقاء فى موسكو ، وتأكدت شكوك المخابرات الفرنسية . عرض «فيتروف» أن يخدم كجاسوس خائن لبلاده فى المخابرات السوفيتية . فى لقاءات متتابعة سلم «فيتروف» تحت أسوار الكرملين نسخ وثائق سرية جداً ، كلها مختومة بعبارة «**ممنوع التصوير**» .

تكشف الوثائق عن كل ما يعرف عن عمليات السرقات التكنولوجية التى قامت بها المخابرات السوفيتية . حلل «فيتروف» أسلوبه فى التقاط صور الوثائق بأجهزة

شعبة «جاسوسية التكنولوجيا» ، والوقت الذى يستغرقه فى التصوير . فخشى أن يتعرض للشك ، وزودته المخابرات الفرنسية بجهاز تصوير خاص فائق السرعة ، يمكنه من تصوير خزينة ملفات وثائق بأكملها فى زمن وجيز .

كان «فيتروف» يسلم أفلام الصور لضابط اتصال يعمل ملحقا عسكريا فى السفارة الفرنسية . وكان الحلفاء الغربيون يشتركون فى الكنوز ، وكانت تعود عليهم بفائدتين : فقد كشفوا الأهداف التكنولوجية التى تسعى إليها موسكو وتهتم بمعرفتها ، وفى الوقت نفسه اكتشفوا مواطن الضعف التكنولوجى فى العسكرية السوفيتية . وعلاوة على ذلك تعرفوا على شخصية حوالى ٣٠٠ عميل تورطوا فى سرقات تكنولوجية ، وتوصلوا إلى أكثر من ١٠٠ عميل فى الغرب كانوا يساعدون فى إتمام العمليات .

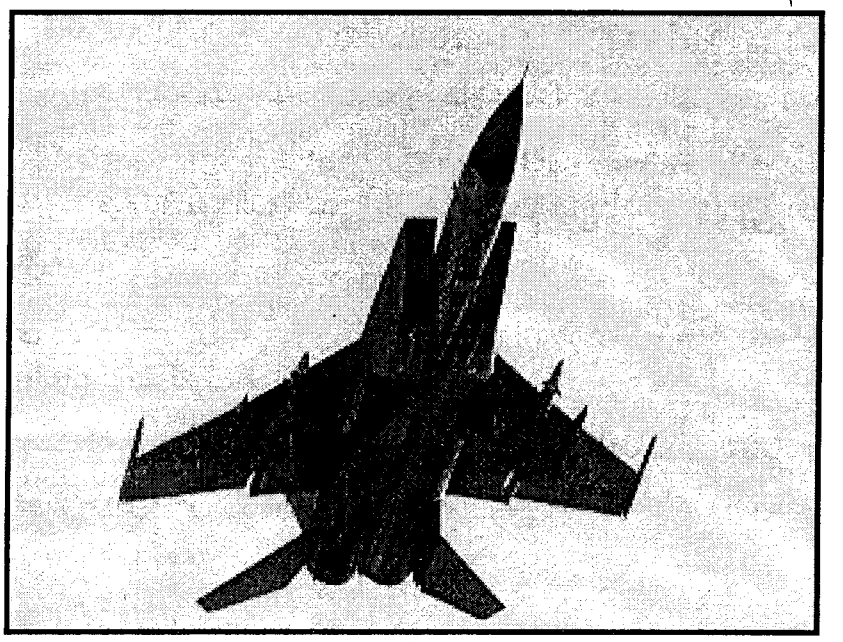

طائرة ميج ـ ٢٥ أعلن ڤيتروف أنها تكنولوچيا مسروقة من الغرب

كانت كارثة من الدرجة الأولى بالنسبة للمخابرات السوفيتية . وكان يمكن أن تكون الكارثة أعظم لو لم يرتكب «فيتروف» جريمة القتل فى الحديقة العامة عام ١٩٨٢م بسبب توتر حياته المزدوجة . وبمجرد أن علمت فرنسا أن «فيتروف» قد اعتقل ، قررت ـ مع الحلفاء الغربيين ـ شد البساط من تحت أقدام «خط إكس» ، فطرد من فرنسا ٤٧ ضابطا من رجال المخابرات السوفيتية يعملون تحت المظلة

الدبلوماسية ، و١٥٠ جاسوسا من دول أخرى . وأسرعت المخابرات السوفيتية بسحب ٢٠٠ آخرين قبل أن يتم اعتقالهم أو طردهم ، واعتقل الحلفاء الغربيون عددا من العملاء .

وهكذا انهارت عمليات «خط إكس» ، تاركا الاتحاد السوفيتى أكثر ما يكون عرضة للعطب ، فى الوقت الذى بدأ البناء العسكرى الأمريكى الضخم يزداد نموا أثناء إدارة «رونالد ريجن» . واضطر السوفييت إلى الاعتماد على مصادرهم الخاصة مؤقتا ، دون تقدم يذكر ، بل أدى التخبط إلى انهيار الاقتصاد السوفيتى ، وكان ذلك من أهم الأسباب الرئيسية لانهيار الاتحاد السوفيتى نفسه بعد عدة سنوات .

أما بالنسبة «لڤيتروف» ، فيمكن تخيل ضراوة غضب المخابرات السوفيتية عليه . فمنذ «**أوليج بنكوفسكى**» لم يسبب جاسوس خائن لصالح الغرب مثل هذا الضرر الشنيع . رأت المخابرات السوفيتية تقديمه للمحاكمة . لكنه أعلن بصراحة أنه سيجعل من المحاكمة منبرا للحديث عن فشل زعامة الاتحاد السوفيتى، واتهام المخابرات السوفيتية بالفساد والعربدة والمحاباة . ورفض أن يشترك فى محاكمة مسرحية يردد فيها النص الذى يملى عليه . وصمم على أن يضيف إلى اعترافه العبارة التالية :

«أسفى الوحيد هو أنى لم أستطع أن أتسبب فى أضرار أكثر للاتحاد السوفيتى ، وتقديم خدمات أكثر لفرنسا» .

ولما يئست المخابرات السوفيتية ، قررت إخراج الرجل المثير الذى يحمل اسما حركيا هو «**فيرويل**» من زنزانته ذات صباح من ربيع عام ١٩٨٣م . وإعدامه رميا بالرصاص دون محاكمة.

★ أوليج بنكوفسكى جندى للسلام !!؟

له أربع أسماء حركية : أليكس ، وتشوك ، وهيرو ، ويوجا . تذكر بعض المصادر* أن حلقة بارزة من حلقات التجسس فى الحرب الباردة ، بدأت ليلة ١٢ أغسطس ١٩٦٠م على أحد كبارى موسكو ، حينما واجه شخص ممتلئ ، بادى القوة ، ربع القوام ، أحمر الشعر ، سائحين أمريكيين ، ودس فى أيديهما مظروفين. طلب منهما توصيلهما إلى وكالة المخابرات الأمريكية ، ثم ابتلعه الظلام .

* ص ٢٣ - الجواسيس - تأليف : « إرنست فولكمان » .

ساور السائحين الشك فيما حدث ، لأنهما تلقيا تحذيراً بأن المخابرات الروسية تنصب شراكا من هذا النوع للايقاع بالسائحين . تدس فى أيديهم موادا تدينهم بالتجسس ، ثم تقتلهم . بعد مناقشة الأمر فيما بينهما ، قررا تسليم المظروفين مغلقين إلى السفارة الأمريكية .

وفى رواية أخرى * ، أنه فى ذات يوم من أيام سبتمبر ١٩٦١م ـ السنة التى هرب فيها «فيلبى» ـ كان رجل روسى أنيق يتجول فى أحد شوارع موسكو المشجرة، ثم توقف بجوار صندوق رمل حيث كان بعض الأطفال يلعبون ، ابتسم ، وقدم لأحدهم علبة حلوى . ولما ذهب الرجل ، عاد الطفل بعلبة الحلوى إلى أمه . كانت الأم زوجة دبلوماسى بريطانى فى سفارة بريطانيا بموسكو . احتوت العلبة على أربعة أفلام تصوير لوثائق معلومات روسية بالغة السرية .

لا يهم أى الروايتين أصح . المهم هو أن الدبلوماسى الذى فتح المظروفين فى السفارة ، عرف فى الحال أن المرسل يتطلع إلى شئ أبعد ما يكون عن الدبلوماسية. وجد رسالة بإمضاء الكولونيل «**أوليج بنكوفسكى**» . يعرض فيها أن يتجسس لأمريكا . وفى الرسالة بعض مواد استخبارات عسكرية . ويحتوى المظروف الثانى على تعليمات متقنة عن الكيفية التى تستطيع بها محطة المخابرات الأمريكية الاتصال به فى موسكو .

قررت محطة المخابرات الأمريكية فى السفارة أن الرسالتين محاولة لزرع عميل مزيف فى وكالة المخابرات الأمريكية . وباستقصاء تاريخه الشخصى ، اتضح أنه ولد عام ١٩١٩م فى القوقاز . أبوه مهندس مناجم . وأنه التحق بالجيش الأحمر عام ١٩٣٩م ، ولما كان عضوا فى الحزب الشيوعى ذا ملف نظيف ، فقد رقى إلى وظيفة مسئول حزبى . اشترك فى حرب روسيا ضد فنلندا عام ١٩٤٠م فى سلاح المدفعية ، ثم خدم فى معارك أخرى إلى أن أصيب بجرح بالغ فى يونيه ١٩٤٤م . وبعد عامين اختير للعمل فى المخابرات العسكرية الروسية . باعتباره واحداً من ألمع الضباط . وفى عام ١٩٥٥م تقلد منصب رئيس المخابرات السوفيتية العسكرية المقيم فى «أنقرة» تحت ستار وظيفة الملحق العسكرى الروسى .

من الصعب تصديق أن شخصا هذا ماضيه ، وذاك منصبه ، يمكن أن يتجسس

* **Timespan Spies - by : Tim Heaiy . Page 45 .**

على بلاده لصالح المخابرات الأمريكية . لهذا عاملته المخابرات الأمريكية بحذر شديد، لكن كل الشكوك زالت حينما بدأ «بنكوفسكى» فى ضخ سيل من المعلومات الهامة ، ذاكرا أنه يريد أن يصبح «جنديا للسلام» . لم يكتف بتصوير أكثر الوثائق سرية ، وإنما كان يضيف معلوماته الوثيقة الأكيدة عن التكنولوجية العسكرية السوفيتية ، وزود المخابرات الأمريكية بأدق المعلومات عن نظم المخابرات الحربية السوفيتية ، وأرشدها عن مئات العلماء السوفييت فى جميع أنحاء العالم .

كانت معلومات «بنكوفسكى» تغطى ميادين واسعة ، فاشتركت المخابرات الأمريكية مع المخابرات البريطانية فى التعامل معه ، وأصبح بذلك جاسوسا للغرب ، ضابط الاتصال الرئيسى به رجل أعمال إنجليزى يسمى «جريفيل واين» ، تضطره أعماله أحيانا الذهاب إلى موسكو . ومن خلاله زودت المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية بنكوفسكى بالمال ، وآلة تصوير مينوكس دقيقة ، وجهاز استقبال لاسلكى عالى الكفاءة ، فاستطاع فى ١٨ شهرا أن يزودهم عن طريق «واين» بحوالى ٥٠٠٠ فيلم لمواقع عسكرية ووثائق هامة .

وصف «**موريس أولدفيلد**» ـ رئيس محطة المخابرات البريطانية فى واشنطن ـ بنكوفسكى بأنه «استجابة للدعوات» ، لأن ظهوره تم فى أحرج لحظات مخابرات الغرب ، إذ كانت تصادف صعوبات جمة متزايدة فى تتبع مدى نمو القوى العسكرية السوفيتية ، وخاصة ما يتعلق ببرامج الصواريخ السوفيتية عابرة القارات .

أوليج بنكوفسكى أثناء المحاكمة

كان الرئيس السوفيتى «**نكيتا خروشوف**» قد أعلن أن صواريخه تستطيع إصابة دبابة فى الفضاء ، مما يمثل فجوة كبيرة بين القوتين الشرقية والغربية ، وهذا ساعد على انتخاب «جون كينيدى» فى حملة الدعاية لانتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٦٠م .

أصيب مستخلصو المعلومات من «بنكوفسكى» بصدمة ، حينما علموا من تقاريره أن «**فجوة الصواريخ**» لم تكن سوى فرية . أكد ذلك حينما زار «**لندن**» أوائل عام ١٩٦١م رئيسا لوفد تجارى سوفيتى ، لم يكن

فى حقيقته سوى مجموعة من رجال المخابرات العسكرية السوفيتية ، ذهبوا لجمع المعلومات عن الصناعة والتكنولوجيا البريطانية . استمرت الزيارة ستة أيام ، أرهق الإنجليز فيها الوفد السوفيتى طوال الوقت فى برنامج مكثف ، وكان «بنكوفسكى» يتسلل كل مساء من الوفد ، ويلتقى فى جناح فندق برجال مخابرات إنجليز وأمريكيين ، ويمضى الساعات فى إطلاق العنان للسانه ، عن أكثر أسرار موسكو العسكرية أهمية .

استبعد المتعاملون معه فكرة أن يكون مدفوعا كعميل مزروع فى جسم المخابرات الأمريكية والبريطانية ، لأن العميل المزروع لا يمكن أن يتقدم بهذا القدر ولا نوع المعلومات الدقيقة الحيوية . بالبحث عن خلفيته ، اتضح أن أباه توفى عام ١٩١٩م أثناء الحرب الأهلية الروسية ، لكن أمه أخبرته بأنه توفى بحمى التيفوس عام ١٩٢٠م . وقد خرجت المخابرات من ذلك بأحد أمرين : إما أن يكون أبوه معارضا للشيوعية وهذا يضعف من ولائه للشيوعية ، وإما أن «بنكوفسكى» أخفى ظروف وفاة أبيه لأسباب أكثر خطورة . ومن سوء حظه أن اشتبهت المخابرات السوفيتية فى تحركاته بلندن ، فقلبت ملفه ، وأعادت النظر فى خلفيته ، وتوصلت إلى نفس النتائج ، فساورتها فيه الشكوك ، فجمدت عمله . وألغت نقله إلى الهند ، وأصبح معرضا لمصير خطير ، ومن فرط كراهيته للنظام السوفيتى ، أخبر الحلفاء الغربيين بأنه أصبح مقتنعا بأن حكومة السوفييت عازمة على تدبير حرب عدوانية مستقبلا ، عندما تشعر بأنها مستعدة عسكريا ، لتواجه الغرب فى معركة فاصلة ، تقرر ما إذا كانت الشيوعية هى التى تحكم العالم أم الرأسمالية .

كان «بنكوفسكى» يؤمن برؤياه هذه ، ويدلى بها فى حماس غريب ، واثقا من دوره فى إنقاذ العالم ، وكان مستمعوه يستشفون فى حديثه جنون العظمة .. خصوصاً عندما طلب مقابلة الملكة «إليزابيث» ، ورفض طلبه مع السماح له بمقابلة «**ديك وايت**» رئيس المخابرات البريطانية زمنا قصيرا . وطلب مقابلة «الرئيس كينيدى» وجها لوجه ، ورفض طلبه بحجة أن جدول الرئيس لا يتسع لتحقيق مطلبه . وترضية له رتبت له المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية تفصيل زى كولونيل فى الجيش الأمريكى ، وآخر فى الجيش البريطانى ، والتقطت له عدة صور مع معامليه من رجال المخابرات الأمريكية والبريطانية . ووقع «بنكوفسكى» عقدا مع المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية ينص على موافقته على أن يصبح «جنديا للعالم الحر» .

كان «بنكوفسكى» يقدم كل هذه الخدمات مقابل مكافأة زهيدة ٨٢٠٠٠ دولار . لكن معلوماته الثمينة خلقت مشكلة عملية . كانت رحلاته الخارجية محدودة ، فكان لابد من إيجاد وسائل للحصول على معلوماته فى موسكو حيث يعيش ويعمل . من بين رجال المخابرات البريطانية ورجال المخابرات الأمريكية فى موسكو تحت ستار العمل الدبلوماسى رجل اسمه «**رودريك شيشولم**» ، له زوجة اسمها «جانيت» تعمل سكرتيرة للمخابرات البريطانية ، تعيش معه فى موسكو . كانت «جانيت» تأخذ طفليها الصغيرين إلى حديقة عامة يوما كل أسبوع . وفى وقت معين ، يتقدم «بنكوفسكى» منها ، يطرى على جمال طفليها ، ويقدم لهما حلوى من علبة ، فتأخذ «جانيت» الحلوى ، التى هى فى الحقيقة «ميكروفيلم» . وفى مناسبات أخرى ، يتبادل «بنكوفسكى» و «جانيت» الرسائل ، فى بقعة ساكنة وراء مبرد فى الدور الأول لمبنى سكنى قريب . وفى الوقت نفسه كان «**جريفيل واين**» ـ رجل الأعمال السابق الإشارة إليه ـ يقوم بعمل صندوق البريد كلما زار موسكو .

حصلت المخابرات الأنجلو ـ أمريكية على منجم ذهب معلومات عن حالة قوات الصواريخ السوفيتية . وصلت المعلومات فى وقت عصيب فى غفلة من «بنكوفسكى» ومعامليه ، بأن «**خروتشوف**» قرر إقامة قواعد صاروخية فى «كوبا» ، بدعوى الدفاع عن المنشآت العسكرية الكوبية ، واللواء الروسى المرابط فى الجزيرة . وانهارت القصة حينما قورن الواقع بالمعلومات التى قدمها «بنكوفسكى» عن المنشآت الفريدة ، ونماذج تشكيلات صواريخ «**إس . إس ـ ٤**» ، الصواريخ الذرية السوفيتية متوسطة المدى . لم تترك المعلومات المستقاة من رجلهم فى موسكو أى شك فى عقول المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية فى أن المنشآت فى كوبا ، كانت لأغراض هجومية بصواريخ تحمل رؤوسا ذرية .

كانت هذه وحدها الفائدة الأولى لاستخبارات «بنكوفسكى» ، فضلا عن أنه أخبر معامليه عن مقدار الوقت اللازم من عملية الإنشاء حتى نشر صواريخ «**إس . إس ـ ٤**» ، وبالتالى مقدار الوقت اللازم لإزالتها وفوق كل ذلك ، زود «بنكوفسكى» الرئيس كينيدى بالورقة الرابحة فى لعبة الخداع الدولى ، التى أصبحت أزمة صواريخ كوبا . ولما علم «كينيدى» بأن فرية التفوق الصاروخى مجرد خدعة ، عرف أنه يستطيع دفع السوفييت إلى حافة الحرب النووية ، وهو واثق أنهم

سيتراجعون . لم يكن السوفييت فى حالة لياقة عسكرية لتحدى الولايات المتحدة فى حرب نووية . كانت أزمة الصواريخ على قدم وساق ، بينما انتهى عمل «بنكوفسكى» كعميل خائن لبلاده . وقبيل نهاية صيف عام ١٩٦٢م علم أن المخابرات السوفيتية تجد فى أثره للإيقاع به . انقطع دخوله إلى مكتبة المخابرات السوفيتية فجأة . حيث كان يتردد لالتقاط صور الوثائق ، ولاحظ خلال اتصاله بالسيدة «جانيت» ذات مرة أن رجالا فى سيارة يراقبونه . وفى ٢٢ أكتوبر ١٩٦٢م، حينما بلغت أزمة صواريخ كوبا القمة ، تم اعتقاله .فى الوقت الذى كان يدبر عملية هروبه إلى الغرب لينجو بجلده .

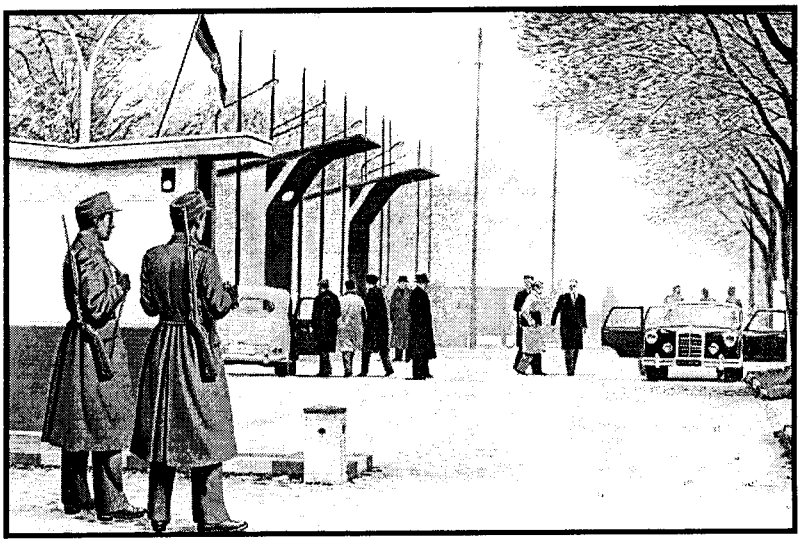

استبدال جريفيل واين بجوردون لونسديل على بوابة برلين

كيف ضبطته وكالة المخابرات السوفيتية؟ رغم أن المخابرات الأمريكية والبريطانية اتخذت احتياطات فوق العادة لحمايته . لم يكن يعرفه سوى عدد قليل من رجال مخابرات الغرب على جانبى الأطلسى ، علاوة على عدد أكثر بقليل يطلعون على المعلومات التى يستخلصها . وقد شكل اعتقال مصدر ثمين مثله أسوأ كابوس يحيق بعميل للمخابرات الأنجلو ـ أمريكية على مستوى رفيع . واتضح أن القبض على «بنكوفسكى» تم من خلال جهود نخبة من رجال الاستخبارات المضادة ، ورقيب فى الجيش الأمريكى ، وخطأ فاحش ارتكبته المخابرات البريطانية .

فى أوائل عام ١٩٦١م علمت المخابرات السوفيتية أن أسرارا عسكرية سوفيتية على جانب كبير من الأهمية فى طريقها إلى الغرب . فجندوا رفيبا أمريكيا اسمه

«**جاك دانلوب**» ، يشغل وظيفة سائق مرافق للسياح فى وكالة الأمن الوطنية . وعلى الرغم من انخفاض مركزه ، إلا أنه استطاع أن يفوز بالاقتراب من وثائق كثير. عهد بها إلى عنايته ، لكنه باعها إلى المخابرات السوفيتية ، وانتحر فيما بعد حينما ضيقت عليه المخابرات الأمريكية الفيدرالية الخناق . ارتاعت المخابرات السوفيتية حينما تصفحت بعض وثائق «دنلوب» ، لأن أكثر المعلومات العسكرية حساسية كانت تصل إلى الغرب . كان المصدر مخفيا ببراعة ، لكن المخابرات السوفيتية انتهت إلى أن لكل من المخابرات الأمريكية أو البريطانية أو كليهما عميلاً خائناً عن مستوى عال يحتل مركزا رفيعا فى العسكرية السوفيتية ... لكن من يكون؟ .. فى المخابرات السوفيتية حوالى ١٠٠٠ موظف لهم حق الاطلاع على مثل هذا النوع من المعلومات التى تتسرب إلى الغرب ، وبناء عليه يتوجب التدقيق فى قائمة تحتوى ١٠٠٠ موظف ، وإعادة فحصهم ، بما فيهم «بنكوفسكى» .

وفى الوقت نفسه استنتجت المخابرات السوفيتية أن المعلومات سُلِّمت فى موسكو، حيث قيادة المؤسسة العسكرية السوفيتية . وهذا يعنى أن المخابرات الأمريكية ، أو وكلاء الاستخبارات البريطانية ، الذين يعملون تحت غطاء دبلوماسى ، كانوا يتسلمون تلك المعلومات . لذا خصصت عملية مسح واسعة النطاق لكل وكلاء المخابرات البريطانية والمخابرات الأمريكية المعروفين ، العاملين تحت المظلة الدبلوماسية فى موسكو . كانوا يعرفون أن «**رروديريك تشيشولم**» لأن عميلهم «**جورج بليك**» فى المخابرات البريطانية ، الذى خدم مع «تشيشولم» فى المخابرات البريطانية فى برلين خلال أواخر الخمسينات ، زود المخابرات السوفيتية بجدول كامل بأسماء عملاء المخابرات البريطانية فى برلين . وكان نقل «تشيشولم» فيما بعد إلى موسكو خطأ فاحشاً ، لأن المخابرات البريطانية كانت تعلم تماما بأنه قد استنفد أغراضه . وقد قبض على «بليك» بواسطة المخابرات البريطانية أوائل عام ١٩٦١م ، واعترف بأنه باح بأسماء وكلاء المخابرات البريطانية الذى يعرفهم .

لذلك كان «تشيشولم» وزوجته من بين أهداف المخابرات السوفيتية فى موسكو ، لأنها تعلم أن «جانيت تشيشولم» تعمل سكرتيرة للمخابرات البريطانية فى برلين ، وقد شوهدت تتحدث مع الكولونيل أوليج بنكوفسكى ، التابع للمخابرات العسكرية السوفيتية ، الذى يدخل الشقة فى المبنى القريب ويغادرها بسرعة ، ويكرر زيارة مكتبة المخابرات السوفيتية .

وضع وكلاء المخابرات السوفيتية شمعا مسموما على مكتبه فى مسكنه . أدى السم إلى نقل بنكوفسكى إلى المستشفى . ولازم الفراش أسبوعا ، كان كافيا لأن تثبت خلاله جهاز تصوير سينمائى دقيق فى مصباح المكتب . فلما عاد «بنكوفسكى» إلى البيت ، سجلت «الكاميرا» كل ما كتب من معلومات أرسلها للغرب .

فى أكتوبر ١٩٦٢م قبض عليه أثناء تخطيطه للهرب من موسكو إلى الغرب . وقدم «بنكوفسكى» للمحاكمة مع «**جريفيل واين**» . أدلى بنكوفسكى باعترافه فى هدوء . تأكدت إدانته ، وحكم عليه بالموت بأشنع وسيلة يخص بها الروس أسوأ الخونة . أطعموا به فرنا متقداً ببطء شديد ، على مرأى من بعض رفاقه القدامى ، الذين دُعوا وأُرغموا على مشاهدة مصيره المؤلم ، أما «**واين**» فقد اختطفوه من المجر، ونقل إلى روسيا ، وحوكم وثبتت إدانته ، وحكم عليه بالسجن ثمان سنوات، ولم يستكمل مدة العقاب فى السجن ، لأنه استبدل عام ١٩٦٤م بجاسوس روسى، هو «جوردن لونسديل» .

★ إسرائيل بيير رجل لا وجود له !!

فى صيف عام ١٩٦٠م ، ذهب رجل أعمال أمريكى فى رحلة عمل إلى إسرائيل . وجلس ذات مساء ليتناول طعام العشاء فى أحد مطاعم «**تل أبيب**» كان للرجل خلفية فى العمل بالمخابرات ، إذ خدم فى مكتب الخدمات الاستراتيجية التابع لوكالة المخابرات الأمريكية ، كما اشترك فى الحرب الأهلية الأسبانية . وظل محتفظا بواحدة من أهم عادات الجواسيس ، وهى التفرس فى الأشخاص الموجودين فى الغرفة ، وقراءة شخصياتهم وأفكارهم إن أمكن ، بمجرد دخولها .

حملق فى أرجاء المطعم الصغير ، وتسمرت عيناه فجأة على رجل يجلس بجوار مائدة فى الركن . ظل شاخصا إليه ، بينما عادت الذاكرة إلى الوراء تتدفق بتفاصيل ذكريات حية : آخر مرة رأى فيها هذا الرجل ، كان فى « **مدريد**» عام ١٩٣٦ . فى زنزانة سجن ، ومحقق من وحدة المخابرات السوفيتية المنوط بها فرز الجواسيس من لواء المتطوعين الدوليين يضربه ويطلب منه الاعتراف بأنه جاسوس . لم ينس الرجل الأمريكى ذلك الوجه المعروف الكئيب ، الذى يبدو كجمجمة تكسوها طبقة رقيقة من الجلد .

والآن بعد ٢٤ سنة يجلس على بعد ١٥ قدما منه ، هادئا يتناول عشاءه ، والأغرب من ذلك أنه يرتدى زى كولونيل فى جيش إسرائيل . كيف لسفاح مغمور فى المخابرات السوفيتية أن يصبح ضابطا حربيا عظيما فى إسرائيل ؟ انزعج الرجل الأمريكى ، فترك المطعم ، واتجه رأسا إلى أقرب مركز لقيادة «الموساد» وكالة المخابرات الإسرائيلية . ولشد ما كانت دهشة الرجل الأمريكى عندما شاهد أن موظفى الموساد لم ينزعجوا مما قاله لهم ، لأنه ـ بكل بساطة ـ أكد لهم ما يعرفوه بالفعل . فقد كان هناك خطأ خطير بشأن الكولونيل «**إسرائيل بيير**» .

موضوع «بيير» يشكل هاجسا مستمرا لرئيس الموساد «**إيزار هاريل**» منذ عشر سنوات ، وهو «**مايسترو**» الجاسوسية الأسطورى الذى أسس «الموساد» ، وجعلها اسما بارزا بين منظمات الجاسوسية العالمية . وكان معروفا باعتماده على عنصر العاطفة الإنسانية فى عمليات الاستخبار وتنشئة الجواسيس ، بل وجعلهم خونة لبلادهم . واعتمادا على هذه الحاسة الغريزية ، اقتنع تماما بأن «إسرائيل بيير» كان يتجسس لحساب المخابرات السوفيتية . رغم اعترافه بانعدام أدنى دليل . وحتى عام ١٩٥٩م ، لم يكن فى ماضيه شئ يعيب كونه موطنا إسرائيليا مخلصا .

مثل كثيرين غيره من أبناء جيله ، هاجر «بيير» إلى فلسطين فى الثلاثينات هربا من الاضطهاد النازى . واستنادا إلى سجلات وزارة الدفاع . ولد «بيير» فى النمسا ، وانضم إلى الاشتراكيين عام ١٩٣٤م ، ثم اشترك فى الحرب الأهلية الإسبانية بعد ثلاث سنوات إلى الموالين . وفى عام ١٩٣٨م هاجر إلى فلسطين ، وألقى بثقله فى الجمعيات السرية اليهودية .

انضم «بيير» إلى عصابة «**الهاجاناه**» ، الجيش السرى الصهيونى ، وتطوع بخدماته للشعبة الألمانية لمخابرات الانتداب البريطانى ، محاولا تقصى تحركات زعماء الصهيونية . لم يكن الإنجليز يعرفون علاقة «بيير بالهاجاناه» ، فمنحوه سلطة غير محدودة فى الاطلاع على سجلات زعماء الصهيونية المتحدثين بالألمانية، وتسربت المعلومات بالتالى إلى «الهاجاناه» ، وهكذا تجنب الزعماء الرئيسيون الاعتقال . وفى الوقت نفسه عرف «بيير» اليهود الذين يزودون الإنجليز بالمعلومات .

من بين زعماء الصهاينة الذين ساعدهم «بيير» فى فلسطين كان «**ديفيد بن**

جوريون» . فتوطدت بينهما الصداقة التى لعبت دورا هاما فى حياة «بيير» فى عام ١٩٤٥م أصبح «بيير» رئيس العمليات فى «الجليل الأعلى» بالنسبة للهاجاناه . وخلال حرب عام ١٩٤٨م خدم «بيير» فى القيادة العامة لأركان «الهاجاناه» فى «تل أبيب» ، حيث اعتبروه واحدا من أهم مهندسى الانتصار .

تقلد «بيير» بعد الحرب منصبا رفيعا فى الجيش الإسرائيلى وإدارة المخابرات، بفضل العلاقة الحميمة التى تربطه ببن غوريون ، أول رئيس للوزراء الذى كان يثق فيه وفى قدرته على إنجاز كل الأعمال التى تطلب منه . ومن بين الواجبات التى أسندها إليه : مسئولية تنظيم يومياته ، وهو عمل أطلعه على مجال واسع مدهش من الأسرار .

كان «بن غوريون» يثق فى «بيير» ثقة عمياء . لكن «**إيزرا هاريل**» رئيس المخابرات الإسرائيلية كان على عكس ذلك . كان يشعر نحوه بما يمكن تسميته «نفور الثقة» . لم يأخذ عليه خطأ معينا ، ولكنه كان يقول لرجاله إن شيئا ما يجعله غير مرتاح له . ومن أجل هذا وضعه تحت رقابة مستمرة وكان «هاريل» يعرف أن عليه أن يتحرك بحذر شديد ، متحسبا لعلاقة «بيير» الوطيدة بأقوى شخصية فى الدولة . وفى عام ١٩٥٢م حينما أطلق اسم «الموساد» على المخابرات الإسرائيلية ، وتقلد «هاريل» رسميا منصب رئيس الوكالة الجديدة . حصل على ما يؤكد شكوكه فى «بيير» .عندما استقال «بيير» فجأة من الجيش وتحول إلى السياسة ، ملتحقا «بالمابام» أكثر الأحزاب السياسية الإسرائيلية تطرفا لليسار . وقبل مضى سنة من هذا التحول طرد بسبب انحرافه اليسارى . أنكر «بيير» آراءه السياسية وأصبح رئيسا لدائرة إعلام الحزب . وهذا قوى شكوك «هاريل» . نجح فى سد الطريق على محاولة «بيير» إعادة الانضمام إلى الجيش ، بحجة ضمان الأمن ، لكن «بيير» اعتماداً على صداقته مع «بن غوريون» حصل على وظيفة فى وزارة الدفاع لتحضير تاريخ رسمى لحرب ١٩٤٨م ، وإجراء دراسات استراتيجية .

انزعج «هاريل» لأن «بيير» حصل الآن على حرية الوصول إلى تصنيف المواد . لقد اقتنع تماما بأن «بيير» عميل للمخابرات السوفيتية ، وتحتم تحذير «بن غوريون» من شكوكه ، ولما لم يتأثر بالتحذير ، طلب أدلة ، لم يقدم الدليل الحقيقى الأول إلا عام ١٩٥٩م ، حينما بدأ «**ميخائيل جوليفويسكى**» العميل البولندى ، وكيل المخابرات السوفيتية كشف النقاب للمخابرات الأمريكية عن عملاء المخابرات

السوفيتية حول العالم ومررت المخابرات الأمريكية إلى «هاريل» تقريرا مزعجا من «جولينويسكى» فحواه أن للمخابرات السوفيتية خائناً مزروعاً فى إسرائيل اسمه الحركى «**كومريد كيرت**» فى مكان ما من المستويات الرفيعة فى وزارة الدفاع الإسرائيلية . «جولينويسكى» لا يعرف الخائن المزروع على وجه التحديد ، لكنه قدم إمارات تكفى للإشارة بأصابع الاتهام إلى «إسرائيل بيير» .

بعد عدة أشهر استلم هاريل دليلا آخر . أخبرته استخبارات ألمانيا الغربية ، أن «بير» ـ أثناء زيارته لألمانيا الغربية لإلقاء محاضرة على موظفى العسكرية الألمانية ، تسلل عبر الحدود إلى ألمانيا الشرقية ، وعاد بعد عدة ساعات . لم يخطر «بيير» أى شخص عن رحلته ، ولا هو أدرجها فى تقريره عن رحلته إلى ألمانيا الشرقية .

لماذا يقوم كولونيل إسرائيلى برحلة سرية إلى ألمانيا الشرقية . ثم تأتى المعلومات من رجل الأعمال الأمريكى . وتؤكد أن «هاريل» كان إيجابيا . لقد كان «بيير» خائنا ، مسلحا بالمعلومات الجديدة . حاول إقناع «بن غوريون» بأن يمنحه كامل السلطة ، وهذا ما رفضه رئيس الوزارء .

فى إحدى أمسيات مارس ١٩٦١م ، راقبت فرق الموساد «بيير» وتتبعت آثاره ، وكان يحمل حقيبة أوراق إلى مطعم يبدو شبه مهجور فى «تل أبيب» جلس هناك هنيهة ، ثم انضم إليه رجل يحمل نفس نوع الحقيبة التى حملها «بيير» . عرفه فريق الموساد فى الحال بأنه دبلوماسى سوفيتى وهو فى حقيقته رجل مخابرات روسية على مستوى رفيع . تبادل «بيير» والرجل الروسى النظرات لفترة وجيزة ، ثم قاما وتوجه كل منهما إلى حقيبة الشخص الآخر . وتبادل الحقائب من أقدم حيل الجاسوسية التقليدية . اتضح لفريق الموساد فى الحال أن الحقيبة التى سلمها «بيير» إلى الروسى كانت تحتوى على مجموعة من وثائق مصنفة . وبعد أشهر ثبتت على «بيير» جريمة التجسس ، وحكم عليه بالسجن ١٠ سنوات .

قد تبدو هذه نهاية القصة . لكن الموساد اكتشفت أن لغز «إسرائيل بيير» بالكاد قد بدأ .. رفض «بيير» التعاون بأى وسيلة مع معتقليه . لذا صدرت التعليمات للموساد لاستعادة شريط حياة ونشاط «بيير» ، فكان أول اكتشاف غريب أنهم اعتقلوا شبحا ، فالرجل الذى سمى نفسه «إسرائيل بيير» لا وجود له . وأثبتت التحريات الدقيقة أن كل ما هو معروف عن ماضى بير وخلفيته تقريبا كان أكذوبة.

فالرجل القابع فى سجن إسرائيلى لم يكن نمساويا رغم أنه يتحدث اللغة الألمانية بطلاقة ، كما لم يكن عضوا فى الحزب الاشتراكى النمساوى . كان فى أسبانيا أثناء الحرب الأهلية لكنه لم يخدم فى اللواء الدولى . لم يكن يهوديا . لم يهاجر إلى فلسطين للهرب من اضطهاد النازى .

مـــن يكون إذن ؟

عجزت «الموساد» عن العثور على إجابة للسؤال . وظل «بيير» صامتا حتى توفى بالسكتة القلبية عام ١٩٦٦م ، وأخيرا وصلت الموساد إلى قرار بأن الرجل الذى سمى نفسه «إسرائيل بير» كان يقوم بعملية تجسس تقليدية لحساب المخابرات السوفيتية خائنا لليهود ، زرعوه فى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية بهدف اختراق المنظمات الصهيونية السرية . ولم يتوقع الحصول على مكافأة حينما استولت المنظمات السرية على مقاليد الحكم .

انتهت الموساد إلى أن العملية كلها انطوت على رجلين ـ أحدهما «إسرائيل بيير» الحقيقى ، وكان عضوا نشطا فى الحركة الاشتراكية النمساوية ، ثم حارب فيما بعد فى أسبانيا ، لكن «الموساد» كانت مقتنعة بأن «إسرائيل بيير» الحقيقى لم يترك أسبانيا حيا أبدا . فقد اعتادت المخابرات السوفيتية خلال الحرب الأهلية الأسبانية أن تستولى على جوازات سفر وأوراق المقاتلين فى الفرقة الأجنبية ، وإذا مات فى القتال أحدهم ، ألبست شخصيته لأحد عملائها يتقمص شخصية المتوفى وهُويته ، ويحمل أوراقه .

مـن يكـون الرجـل الآخـر ؟

لم تُكتشف شخصيته أبدا ، لكن «الموساد» يعتقد أنه كان شيوعيا متعصبا نشطا فى النمسا ، انضم إلى الحزب الشيوعى عام ١٩٢٨م . وفى عام ١٩٣١م ضمته المخابرات السوفيتية ليتجسس على أعضاء الحزب ، فمارس مهمته بنجاح . لذا استدعوه إلى موسكو فى عام ١٩٣٤م للتدريب . وأرسلوه بعد عامين إلى أسبانيا رئيسا لفرقة مهمتها استئصال المنحرفين عن الماركسية من بين أصحاب الرتب المتطوعين فى الحرب . ويبدو أنه استغل وظيفته إلى حد ما ، فاستدعوه للعودة إلى موسكو فى ديسمبر ١٩٣٦م ، واستجوبوه حول ما سميت «أخطاء كبيرة» جزاؤها الإعدام عادة فى عهد التطهير ، لكنه خضع لعملية إصلاح عدة شهور ، وتحول إلى «إسرائيل بيير» ليعمل جاسوساً . وظل «إسرائيل بيير» الحقيقى سراً غامضاً .